

أَمْرَاتُ الْمُؤْمِنِينَ
وَبَيِّنَاتُ الرَّسُولِ

وداد سكاكيني



وَدَّادُ سَكَكِنِي

أَمَّهَاتُ الْمَوْلُودِ مِنْ بَنَاتِ

وَبَنَاتِ الرَّسُولِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



مكتبة الطبعة والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة: ١١ شارع جواد حسني

ص. ب. ١٢٠ القاهرة - ت: ٢٩٢٥٥٢٣

٢٣٩,٧ و داد سكاكىنى.
 و د أم أمهات المؤمنين و بنات الرسول/ و داد سكاكىنى. - ط٢. -
 القاهرة: دار الفكر العربى، إيداع ١٩٩٢.
 ١٤٨ ص: ٢٤ سم.
 تملك: ٥ - ٥٣٧ - ١٠ - ٩٧٧.
 ١- زوجات النبى. ٢- بنات النبى. ٣- أهل بيت الرسول.
 أ- العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

تطلعت إلى سماء العرب فى أزهى عصورهم، فرأيت فيها كواكب نسوة ساطعات، بهرنى تألق نورهن وغمرنى شعاع من بركة إيمانهن وإحسانهن، وكنت كأعرابية تهتدى بهدى النجوم فى صحراء الحياة، فتمرست بمطالع هذه الكواكب ومغاريها، وعرفت مسارحها ومساريها، فأحببت أن أقتبس من نورها، وأن أنشر هذا النور الذى تجلت فى ألوانه وأفانينه أكرم معانى الأمومة والإيمان، وأسمى مزايا البطولة والاستشهاد، فتخيرت لها طائفة من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء، ومن أولى من هؤلاء الفضليات العبقريات بالذكر والتصوير والاعتبار، فلقد رفعت فى دنيا العرب والإسلام مكانة المرأة، وكن حجة التاريخ على الرجال، فعكفت طويلاً على كتب السيرة والحديث ورواية الأوائل الذين نشروا أنباء هؤلاء النسوة الكرائم فى ثنايا مؤلفاتهم وتصانيفهم، ونشروا ما يتصل بتلك السير الرائعة والحوادث الجسام على طريقتهم التاريخية فى غير معرض واحد أو رواية واحدة.

وإذا كان على المعاصرين من الكاتبين والكاتبات وقد افتنوا فى أساليبهم فنوناً وألواناً أن يسكبوا فيها أحداث التاريخ ولباب الأدب، ليحببوا بآثرنا وآثارنا أذواق المحدثين من الرجال والنساء، فقد رأيتنى ماضية فى هذا السبيل، على طريقتى التى جعلت سداها الحقيقة ولحمتها التاريخ، ساكبة مداد قلمى على هذه الصور الإنسانية المثالية، من شعور طالما هزنى فخراً واعتزازاً، بهؤلاء الأمهات والأخوات اللاتى لم تنجب أمثالهن أمة من الأمم فى قديم الدهر وحديثه، وكان يفيض فى قلبى ذلك الشعور وأنا أقرأ سيرهن وأتتبع أخبارهن، حتى جلوتها فى صور فنية، تأنس بها النفس ويعلق بها الخاطر، وهأنذى أزجيها إلى فتيات العرب المتنورات، وأمهاتهن اللواتى هبن فى مُطل هذه

النهضة إلى حياة واعية راقية، نافضات عنهن أثقال ماض قاس بجهالته
وزرايته على المرأة، متحررات من الأصقار البالية، كما تتحرر أقوامهن وبلادهن
من أغلال ظالما أرهقتهن عسرا، وسدت عليهم منافذ الحرية والاستقلال.

فإذا لقي كتابي هذا رضا قارئيه وقارئاته، فقد كفاني غبطة في أن قرئت
إليهم صحفاً غراً محجلة، عن نساء العرب والإسلام، يلتمسون في تضاعيفها
السلوى والعزاء، ويحسون منها العبرة والإباء والأسوة الحسنة فيما كانت عليه
المرأة العربية من مكانة وكرامة.

وما أحرانا ونحن على وصيد حياة جديدة حرة، بأن تتخذ المرأة المعاصرة،
من هذه السير المثالية نشيداً تحذو به نهضتها، وأهزوجة تهدد طفلها، وتمضى
في بيتها وبين الناس، على هذا النور المنبعث من صوب الجزيرة ودارة الوحي،
مستلهمة من أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء معانى الإيثار والوفاء وآيات
التقوى والفداء.

وداد سكاكيني

مقدمة الطبعة الثانية

فى عام ١٩٤٧ نشرت كتابى «أمهات المؤمنين» فلقى من حفاوة القراء والنقاد والإذاعة ما حفزنى للاستزادة من موضوعه والتوسع فيما كنت بسبيله من الكتابة عن فضليات العرب والإسلام فى أزهى عصورهما، بمن كان لهن أثر أو مشاركة فى حياة الرسول وصحبه أيام الرسالة وبعدها، ثم تراخى الزمن فى إعداد هذا الموضوع فطويته إلى حين كدأبى كلما عن لى جديد أو التمسست المزيد من التعمق والاطلاع حتى ظهر بعد بضع سنين كتاب الأدبية الدكتوراة بنت الشاطىء، وقد سمته «بطلة كربلاء»، فعجبت لإقدامها على التأليف فى حياة هذه السيدة الفضلى، إذ لم يعجبها إعجابى بها و «بأمهات المؤمنين» فى كتابى^(١)، ولم تلبث الدكتوراة أن نشرت كتابها «نساء النبى» عام ١٩٥٤، فاستبشرت خيراً بقلم متين موهوب يلقى النور على جوانب من حياة هؤلاء النسوة اللاتى كن مع الرسول فى حياته الزوجية والنضالية، وشاركن فيما احتمل من البلايا والخطوب فى سبيل دعوته الكبرى، لكن قلم الأدبية الدكتوراة بنت الشاطىء أصر فى كتابها «نساء النبى» على أن يتناول «الجانب البشرى» من حياة محمد عليه السلام، فرحت أتساءل: وما هو هذا الجانب الذى عنته الكاتبة الفاضلة؟

لقد ذكرت فى بضع صفحات كلمات بشر وبشرية وبشرى عشرات المرات، قالت فى خلالها إن إيمانها قد عصمها من التحرج المنكر فيما لا يحتاج إلى ستر وكتمان من أنباء الحياة الزوجية الخاصة بالرسول الذى لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته!

فعدت أحاور نفسى خطرة ثانية، متعجلة متسائلة، قبل أن أمضى فى قراءة الكتاب، ما هى البشرية فى معناها اللغوى والاصطلاحى؟ أو التى نص

(١) مقالها فى هذا منشور بمجلتى «الهلال» و «الكتاب» عام ١٩٤٧.

عليها القرآن كما قالت: «فقد زين الإجلال لمن كتبوا عن محمد أن ينزهوه عن بشريته، وأصر هو على تقريرها والاعتراف بها»^(١).

تبين لى أن المؤلفة الفاضلة شاءت كما ذكرت فى المقدمة «أن لا تكون دراستها هذه على النحو التقليدى المؤلف فى تراجم الأشخاص». وإنما عناها أن «تتمثل حياة النسوة اللاتى عشن فى بيت محمد وأن تصور شخصياتهن تصويراً يجلو كلا منهن زوجة وأنثى فى بيت كريم تلاقى فيه البشرية بالنبوة».

على أن «حياة محمد ﷺ فى منزله تبدو رائعة فى بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين زوجاته رجلاً ذا قلب وعاطفة ووجدان، ولم يحاول- إلا فى حالات الضرورة القصوى- أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية، فيرونا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى ولا الجمود العاطفى، وما ذلك إلا لأنه- ﷺ- كان سوى الفطرة فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا وينحني عنها كل ظل من ظلال الركود والهمود والجفاف».

«وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات بأنهن كن دائماً فى حياة الرسول البطل يصحبنه حين يخرج فى معاركه ويتحن له ما يرضى بشريته ويغذى قلبه، ويمتع وجدانه، ويجدد نشاطه»^(٢).

فإذا تعرضت الأدبية المؤلفة لقضية التعدد فى زوجات النبى راعها ما قال المستشرقون فى هذه القضية «إذ لم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء تحت رجل واحد سوى مظهر شهوة طاغية، وإنه لضللال قد أملاه التعصب الأحق والهوى الأعشى وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد وأبعاد...»^(٣)

(١) ص ٨ نساء النبى.

(٢) ص ١٨ نساء النبى.

(٣) ص ١٩.

وقد أحسنت الكاتبة الفاضلة فى أخذها بالجانب المضى الذى فضلت فيه التعدد المشروع للضرورة على نظام الزوجة الواحدة الذى لا يتبع بذمة ودقة فى بلاد المستشرقين والمشتنعين. ثم ناقضت نفسها وهى تصور «شقاء الضرات المرهقات بالغيرة الزوجية المحتدمة فى بيت محمد مما خيل إليها معه أن هذه الغيرة جعلت من هذا البيت ميداناً لمعارك نسوية لاتهدأ ولاتفتر وإن لم ترفبه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء الزوجات».

عجبت لهذا المجهود الذى بذلته الدكتورة بنت الشاطىء لبحثها هذا وفى الجانب الذى عناها وأخذ من عنايتها الكثير، فلما وصلت إلى زواج محمد من سودة العامرية- وكانت أرملة مسنة رضى بها الرسول بعد وفاة خديجة لتقوم على شؤون بيته وبناته حتى دخلت بعدها عائشة الصغيرة زوجة مفضلة- قالت المؤلفة الباحثة «إن محمداً أشفق على سودة من الحرمان العاطفى وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات وحاول جهد المحاولة أن يفتح لها قلبه، لكن بشريته لم تطاوعه، أما عواطفه فأنى له- وهو بشر- أن يقسرها على غير ما تهوى»^(١).

ألا يفهم القارئ من هذا كله أن البشرية التى عنتها المؤلفة هى التى عناها المستشرقون، فكيف ضاقت بإرجافهم ولزهم هذا الجانب مما تقولوا فيه على النبى عليه السلام، ثم تسمح لقلمها بأن يصر ويلح على أن محمداً لم يبرأ من بشريته، فعدد الزوجات كما قالت ومارس حياته الزوجية ببشرية سوية لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر والرغبات!

وما كنت لأطيل التأمل فيما جاء بمؤلف الدكتورة بنت الشاطىء عن هذه البشرية التى أصرت عليها لولا أنها وقفت طويلاً عند رأى الدكتور محمد حسين هيكل- يرحمه الله- فى كتابه «حياة محمد» وهو يستفزع لمز المبشرين والمستشرقين الذين دسوا الأقاويل فى موضوع أراد به الإسلام أن يبطل الحقوق المقررة فى التبني والادعاء عند العرب حين تزوج الرسول مطلقة ربيبه الذى تبناه

وهو زيد بن حارثة، وكان متزوجاً زينب بنت أميمة بنت عبدالمطلب عمته محمد .
على أن زينب هذه لم تسعد بزيد بل شقيت بزواج خيل إليها فيه أنها
وهي الهاشمية الحرة قد لحق بها الهوان من جراء زواجها بمن كان من الموالي
والأدعياء، وإن أقصاه عنهم عتق محبب من خديجة التي وهبته لمحمد حتى
أشهد الناس على أن زيدا الذى تبناه هو وارث وموروث كأنه من لحمه ودمه
على عادة العرب قبل الرسالة.

ولما كره زيد من زوجته زينب هذا التأبى والتعيير وقد ساوى الإسلام بين
الناس وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم، تخلص منها بأبغض الحلال وهو الطلاق .
ود الرسول أن يتزوج زينب بعد ريبه ويضمها إلى بيته زوجة مكرمة،
فهى بنت عمته، وقد عرفها طفلة وصبية فإذا فزعت إليه أو مال إليها بعد الذى
أصابها والتبس فى أمرها، رد إليها كرامتها، لكنه كان يخفى فى نفسه هذه
الرغبة خشية الظنون والتقول، لأنها مطلقة ابنه الدعى ويريد أن يقضى على هذا
العرف المألوف بهذا الزواج الذى يوضح الفرق بين البنوة والتبنى.

وكان هذا الزواج أمراً مفعولاً لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج
أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، فاتخذ أعداء محمد ورسالته فى القديم والحديث
من هذه المشكلة التى حل عقدها الإسلام موضوعاً للدسيسة والتشنيع. وقد
رد الدكتور هيكل هذا اللمز من بعض المستشرقين المتهمين والمتجنين على
الدين والتاريخ إلى الخصومة القديمة التى ابتليا بها منذ الحروب الصليبية^(١)
لكن الأدبية الدكتور بنت الشاطىء لم يعجبها رد هيكل فأصرت على أن قصة
إعجاب الرسول بزينب مطلقة زيد « كتبت قبل أن تسمع الدنيا بالحروب
الصليبية بأفلام نفر من مؤرخى الإسلام ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام بعداء
النبي والدس على الإسلام ».

« وما نعرف فى تاريخ الأبطال ولا أقوال الأنبياء من أصر على إعلان
بشريته وتقريرها إصرار محمد بن عبد الله ».

(١) حياة محمد ص ٢٩٥ هنا لو أضاف إليها: « والدعوة الصهيونية ».

« أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيعجب بها ، وماذا يطلب من مثله- فى سمو خلقه وعفة ضميره- أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبتة ».

« إن القصة- وقد نقلها إلينا رواة غير متهمين- لترتفع برسولنا عليه السلام إلى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى ، فما ادعى نبينا قط أن قلبه بيده ولازعم مرة أنه مبرأ من عواطف البشر منزّه عن أهوائهم»^(١).

فيإذا كان بعض المبشرين بمآرب المستعمرين وبعض المؤرخين العرب ذكروا أن محمداً أبصر زينب بعد زواجها فوقعت فى نفسه- وقد رأى فتونها من قبل- إذ انكشف عنها سترها وهى فى حجرتها حاسرة حين جاءها يتفقد زيدا وأعجلتها البغته عن الالتفاف بردائها ، أياكون هذا دليلا على أن النبى لم يضبط نفسه إزاء فتونها فتمناها وتشهاها؟

وهل كان تأويل بعض المفسرين وهم قلة معروفة بنهجها ، وترديد الرواية ولو كان منهم الطبرى ، حجة بالغة دامغة على هذه الرواية المضعوفة؟

وبعد فما كان أغنى المؤلفة عن الخوض فى هذا الإلحاح والإصرار على بشرية محمد وإيثار الكلام على هذا الجانب بالتوكيد والتأييد لما زعم الذين تحجوا على الرسول والرسالة بمثل هذه الأقاويل ، وهى تعلم أن الإنسانية والمرأة العربية لم تعرف أحب إليها من محمد الذى كان لهما محرراً ومبشراً بمكانة النساء وداعياً إلى تكريمهن أمهات وزوجات وتعليمهن كالرجال ، وكانت سيرته مع المرأة زوجة وبنثاً وقريبة وغريبة تتجلى فى معاملته وتوجيه نصحه ورأيه لما ينبغى لها من حق وما عليها من تكاليف ، وأن لا غضاضة على الرجل فى أن يتلقى عنها ويقضى بها إذا كانت من ذوات النبوغ والتقوى والكفاية فى عملها فقال:

- خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء .

والحميراء هى عائشة زوجته وتلميذته التى كانت البرهان على ما بلغت

(١) ص ١٣٤ و ١٣٥ نساء النبى.

المرأة المسلمة من مكانة علمية حتى استطاعت أن تتقدم الرجل بنبوغها وأن تكون له معلمة وقدوة ومثلاً في استقامتها وفضلها.

فالرسول الذي أحب المرأة لحقها عليه وعلى الإنسانية، وعاملها بما ينبغي لها حاشاه أن يكون عدد الزوجات لبشريته التي ألحت عليها الدكتورورة بنت الشاطي، وهل لها من تأويل غير ما عنت وأكدت؟ وقد قالت إنها «الفطرة السوية» التي جعلت محمداً معدداً للزوجات، وكأن بشريته المتمثلة في رجولته ونزغته الجنسية غلبت على طبيعه فلم تحصنها زوجة واحدة، ولو شاء محمد عليه السلام أن يكون التعدد لمصلحته وبشريته لاختار زوجاته من أنضر الصبايا عمراً وعوداً، وكان بوسعه ذلك لكنه اضطر إلى التعدد إما حلاً لعقدة في مشكلة قبلية أو جبراً لخاطر أرملة مسنة فاضلة كان لها ولزوجها الذي مات عنها شهيدا البلاء والفداء في الجهاد والهجرة، أو حسماً لخصومة محتدمة كادت تفرق بين المؤمنين وتزيد طغيان الكافرين، ولو اتسع المجال في هذه المقدمة لأتيت على أسباب كل زواج اقتضته الدعوة والرسالة فأقدم عليه الرسول وكان له أثره وصداه فيما أراد.

أيكون محرر المرأة والداعى إلى حقوقها ومكانتها عبداً لهواه وفتونها وقد أحاطه بها منذ ولد وفقد الأبوين حتى تزوج ليعرفها على حقيقتها وطبعها، فعرفها مرضعة وحاضنة ومربية ونسيبة ولم يكن غنياً بماله في عهد الشباب، والبال مشغول بحياة قومه ولا يملك من الرزق إلا ما يسد الإعواز والكفاف، والزهادة في المعيشة كانت تقنعه بأجرته في التجارة، فلما دان له الأصدقاء والأعداء على السواء ووثقوا برصانته وأمانته وقد أحس في قلبه بأنه مدعو لغد كبير لا يتسع يومه للكدح والقوت وجد في الزواج من خديجة بنت خويلد وسيلة للتخفف من هم المعيشة، فإن هم قومه كان أشق عليه وأفدح، ولم تكن ملامح نبوته لتخفى على خديجة الزوجة الراححة بنت الأربعين فقد قالت له:

- أرجو أن تكون النبي المرصود، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى يبعثك أن يبعثك لى..

واستجاب الله لدعاء الزوجين المتوادين، فكانت رسالة محمد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور والدعوة إلى حرية المرأة في معانيها الخلقية والحقوقية؟

ولدت الرسالة على يد خديجة أول مؤمنة بها وبصاحبها الذي عرف حقها ومنزلتها، فدعا إلى تحرير النساء وتكريمهن قائلاً: إنما النساء شقائق الرجال، بل لم يقل أحد في تحرير المرأة ورعايتها مثل ما قال محمد الذي كانت رسالته العالمية قائمة على تكافؤ الجنسين وانطلاق الجناحين..

وهذه المساواة الإسلامية التي سنّها الرسول للمرأة لم ترق إليها أحسن النظم والقوانين في أرقى الديمقراطية المعاصرة.

لقد شرع لها مادل على نظرتة إلى التبعات والتكاليف التي تقوم بها، وإلى جدارتها في مساواة تحفظ حرمتها وتضمن حقوقها إذا غبنت أو تجنى عليها الرجل زوجاً أو ملزماً بها، على أن يكون كفاء ما فرض عليها نحوه، وهو لا يفضل عليها إلا بما كلفه الشرع من كفايتها ورعايتها. كانت مجامع بينظرة وغيرها في عصر الرسالة تتحاور وتتشاور في قضايا المرأة وإنسانيتها فقررت أنها مخلوقة لمتعة الرجل وخدمته..

أما محمد عليه السلام الذي وعد المؤمنين بالجنة فإنه رآها تحت أقدام الأمهات، على أن أحرار الفكر من علماء الغرب في العصور الحديثة جعلوا تحرير المرأة الذي جاء به الإسلام من الأسباب القوية في نهضة العرب وفتحهم المبين وقيام حضارتهم، لكن الذين امتهنوا المرأة بعد حين كانوا ممن وضعوا الحضارة والنهضة، وأساءوا في المعاملة.

ولئن كان تعدد الزوجات في حياة الرسول مما تجدد فيه الغمائر ثلباً، فما عددهن محمد إلا حاجة ماسة وضرورة قصوى اقتضتها الرسالة والدعوة، وكان عند العرب تقليداً هيناً لم تبطله الرسالة من فورها وماطوته ألينة لأن تعاليمها لم تكن كما قلت من قبل، لشعب دون شعب ولا لآفاق محددة لا تتعداها، وإنما كانت للعالم على اختلاف مزاجهم وبلادهم وأطوارهم الحضارية وظروفهم

الاجتماعية، وإذا كانت هذه الرسالة العالمية الإنسانية قد أبحاث التعدد لأسباب قاهرة فقد اشترطت العدل بين الزوجات. وإذا تعذر فواحدة، والعدل هذا بمذلوله المادى قد يحقق، وأما بما فى القلب والنفس فأمره إلى الله، وقال رسوله الكريم فى صدد هذا الأمر.. «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى بما تملك ولا أملك...».

فما هى الفائدة العلمية والمنهجية وراء هذا الإصرار على الجانب «البشرى» فى حياة محمد، وكم يجد فيه الذين أضلهم الهوى والتعصب فى الشرق والغرب تثبيتاً لمآريهم وبعداً بالرسول عن حقيقته ورسالته السماوية؟

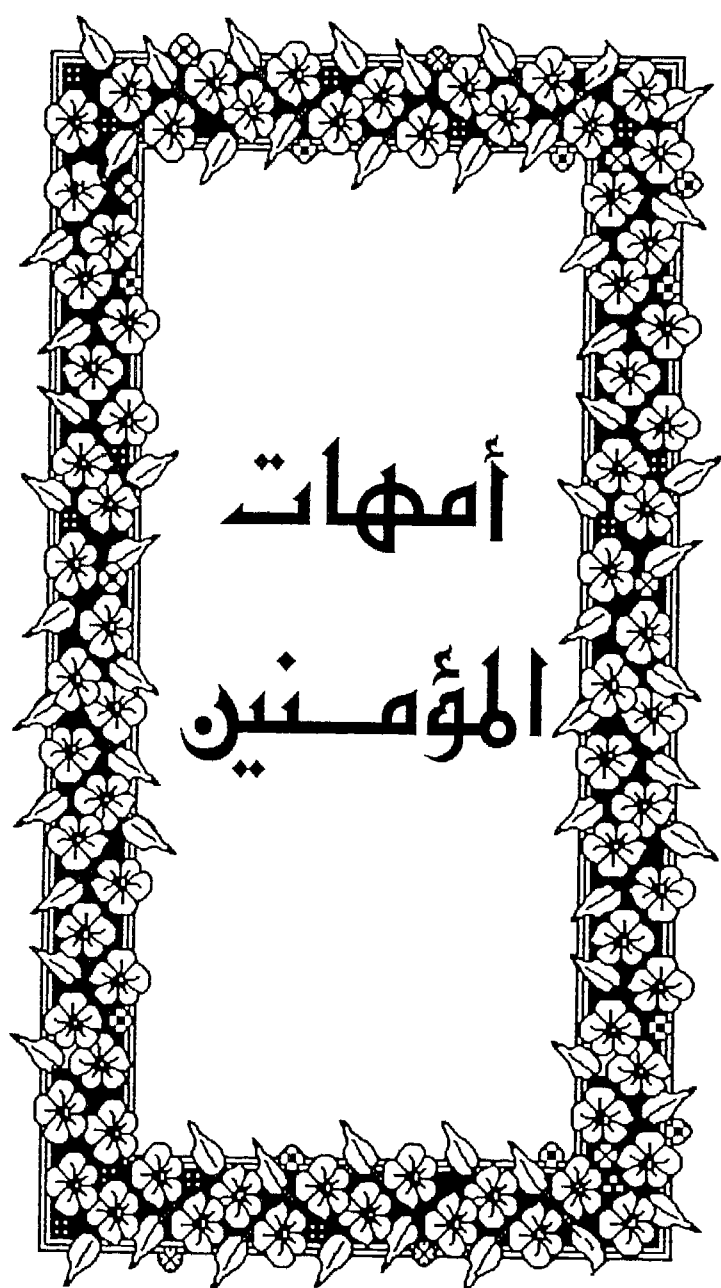
وهل كان من الطوايع البشرية التى عنتها المؤلفة جواز الدنيا والانحراف مما يصيب البشر جميعاً، وقد وصفت الرسول عليه السلام بأجل المزايا والخصال؟ ما أرى فى هذا الإلحاح ونحن نبين المجتمع العربى الجديد فى عهد الثورة إلا رجعية معاصرة، تستهوى العامة من الذين لاهم لهم فى الحياة إلا ألهيته الزواج، واتخاذ التعدد فى العهد الأول للرسالة مبرراً للاستهتار فيه أيامنا على بعد الزمان وتغيير الأحكام، ونحن نعهده من مشكلاتنا المعقدة التى سيحلها تطور الوعى والتعليم والحياة.

ولو أن مؤلفة «نساء النبى» بذلت جهودها فى بحثها لإلقاء النور على جوانب من إنسانية الرسول لم يرها الباحثون لأحسننت صنعاً وجاءت بجدة وجديد، أما «البشرية» التى ألحت فى إيجادها وتأبيدها فما كانت لتمس قلوب المؤمنين، ولا كان الإقدام على بحثها ماثرة فكرية أو تحرراً منهجياً لأن هذا المذهب تأبى عليه المنطق والواقع ولم يلتزمه إلا بعض الفرعجة من المستشرقين.

فهل على من خرج إذا أعدت الدعوة لبعث التراث النسوى العربى فى حياتنا الجديدة وعلى الطريقة التى تسلم من التأويل العليل وتبرز صاحب الرسالة وأمهاة المؤمنين بمزايا الحقيقة والتاريخ الذى خلا من الزيف والتمويه.

وهأنذى أقدم كتابى مرة ثانية ولكن فى صورته المجددة المكبرة التى لا تختلف فى صدق ألوانها وظلالها عن الصورة الأولى.

وداد سكاكينى



أمهات المؤمنين

خديجة بنت خويلد

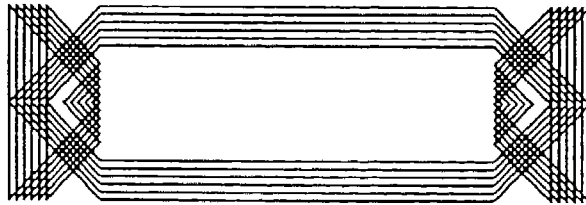
(أم الزهراء)

«أمّرت أن أبشر خديجة ببیت من قصب،
لا صخب فيه ولا نصب»

حديث نبوی شریف

«والله ما أبدلتني الله خيرا منها، آمنت بي
حين كفر الناس، وصدقتنني إذ كذبتني
الناس، وواستتنني بماله إذ حرمتني الناس،
ورزقني الله منها الولد دون غيرها من
النساء»

من حديث النبي ﷺ عن خديجة رضي الله عنها



انظر.. هذا هو الركب العائد، تتهادى هوداجه على بطحاء مكة، وقد تقاطرت عيسه وجلجلت أجراسها بالفضاء القريب.

وها هم رجاله يسحبون أعنة الجمال، وحاديها يهز بترجيعة شعور الشوق والحنين، والمطايا المترنحة مثقلة بالأحمال، إنها لفى هذه الأوية قافلة من بلاد الشام بالطيوب والخضاب، وبأحسن المطارف والمتاع، وفيها من زينة النسوة والولائد أساور وقلائد، وأقراط وخلاخيل، وهذه مكة المكرمة ضاحكة مستبشرة، فقد ذهب عن أهلها الخوف والقلق منذ فصل الركبان، حتى باتوا ينتظرون معادهم على مثل النار، فإن مشارف الشام كانت نايبة الجنبات مما بينها وبين المناذرة من جفوة وتريص.

وهناك فى بيت كريم من بيوتات مكة، قريب من بيت الله الذى بناه السادات من قرش وجهرهم كوة فى علية تطل منها على موكب القافلة المقبلة امرأة عوان، وضيئة رزان، حفت بها الجوارى فى بهجة ومرح، وطغت على سيدتهن فرحة غامرة، لاحت ألوانها فى الحافات من حولها، فأحطن بها فرحات بأوية الركب، طامعات فى خواتيم وأقراط، وثمة جارية منهن مبهورة الأنفاس ضاحكة السن تدنو من سيدتها وتشير إليها بهمس ودلال:

- يا للبشرى، إنه هو ياسيدتى وصويه ميسرة.. هناك فى زحمة الناس، انظرى إليه لكان نوراً يسعى بين يديه..

ولا تكاد خديجة تستمع للجارية حتى يخفق قلبها، ويحدثها حديثاً فتشرق أساريرها ويشيع المرح فى عطفها، إذ كان قلبها غائباً، فأب بأوية السفر، وكانت نفسها قلقة حيرى، فاطمأنت بعودة القافلة وفرحت بسلامتها وغنىمتها، ولم يكن قلق خديجة مذ فصلت القافلة عن حماها خوفاً على تجارتها، وقد جعلت محمداً الأمين مأموناً عليها دون غيره من فتيان قرش، وإنما كانت هواجسها قائمة محتدمة، خوفاً على هذا الفتى الذى ضاعفت أجره وزينت له الرحيل، فأغررت عمه وحبيبته إليه الكسب والسعى، وكان أبو طالب يصحب محمداً فى حدائته حينما كان يسافر بتجارته إلى الشام، ولم ينس ما

وصاه به الأبحار والرهبان فى رعاية هذا الفتى اليتيم، وحمايته من العوادي والخطوب فأسر الندامة لما سافر محمد فى تجارة خديجة. وخشى أن يتعرض لبعض السوء والمكروه فى طريقه، فما الذى عقد لسانه وحط فى قلبه الرضا برحيل الفتى الذى فضله على أولاده؟

ذلك ما كان يردده أبو طالب بينه وبين نفسه، وبين آله وصحبه. فلما عاد إليه محمد رد عنه ندامته وملامته، وجمع نفسه الموزعة وكانت واجمة مروعة فاطمأنت وثابت إلى أمنها وهدوئها.

وتدافعت النسوة إلى بيت خديجة، أقبلن مسرورات يشاركنها فى فرحتها، ويحدثنها بما شهدن فى موكب محمد، وخديجة صاغية حفية بصواحبها اللواتى كن يكبرن الفتى الأمين ويقلن لها:

- ما ينبغى أن يكون هذا رجلاً من الناس!

وزاد حبورهن حين دخل محمد مستأذناً، فتلقته بنت خويلد بأحسن تحية ولقاء معجبة برصانته وأدبه، وأخذ يحدثها بحديث رحلته فى تجارتها، وأنه عاد منها ببضاعة مزجاة وريح موفور، وقد عادت به الذكرى إلى سفرته الأولى مع عمه حين بلغا بصرى الشام وتحادثا إلى رهبانها، فصور لخديجة طبيعة تلك الأرض وما فيها من جمال وخيرات، ولم يطل مجلس محمد، فقد خرج من لدن خديجة مشكوراً مبروراً.

وتحت العشية كان ميسرة بين يدي مولاته خديجة يقص عليها أروع القصص والتهاويل التى عرضت لمحمد فى طريقه إلى الشام وفى رجعته إلى مكة، وأن الله قبض لهذه التجارة من الخير والبركة ما ليس لهم به عهد، فزادها علماً بما قيل لها عن مروءة محمد ورزاقته، وأنصتت خديجة لحديث ميسرة فقد أنبأها أن الأبحار والرهبان مروا بمحمد مبهوتين، وألما به فى صوامعهم مكرمين، وقد بشروه ومن كان معه من المرافقين فى هذه الرحلة بأن هذا الفتى العربى

الرصين هو النبی الموعود، المنعوت فی توراتهم وإنجيلهم، مستيقنين بأنه هو المرصود لهذا الوجود.

فشعرت خديجة بما ملك عليها نفسها، وملأها بهجة وحبا، وتاقت روحها إلى محمد، واهتزت أريجيتها، فأمرت بإعطاء السائلين والمحرومين حقهم في مالها الرابع على يدي فتاها الأمين.

ثم نهضت إلى صناديقها وأوعيتها، فقلبت متاعها وأشياءها، وإذا بمال موفور بين يديها مما بيع لها في مشارف الشام وتخوم البادية من بضاعة الحجاز.

ونشرت الهدايا على نسوتها واختصت ابن عمها الحبر الشاعر ورقة بن نوفل بهدية كريمة، وطلبت إليه أن تراه، وانثنت إلى حجرتها خالية إلى نفسها متشوقة لمحمد، فتراعى لها هذا الفتى المحبوب في شمائله وسعيه، وارتدت خواطرها إلى أمه آمنة بنت وهب نسيتها وجارتها فذكرت حداثة محمد وكفالة عمه له بعد وفاة أمه، وما كان يلقي هذا العم الرحيم من العسر والعنت في رعاية أولاده وحماية هذا الولد اليتيم الذي سلمه الله وأدبه وميزه من لداته بالكرامة والتقوى.

وأقبل على خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذي تعمق في علم الأخبار والرهبان وتبصر وهو المكفوف الضرب بأمر قریش وأطوار حياتها، إذ أنه أقام بمكة بعد تطواف في بلاد الروم مكرما لا يسامى بعلمه وحديثه، فسألته خديجة عن محمد ونقلت إليه ما حدثها به ميسرة غلامها، وما شهدت هي ونسوتها من علامات لا يكاد يركن لها العقل، فقال لها:

- ما ينبغي أن يكون هذا رجلا من الناس!

ولم ينكر ورقة شيئا من خديجة، بل طاب له الحديث عن محمد ومزايه، وازداد إيمانا برصانة هذا الفتى القرشي وفضله، وما ينتظر على يديه لهذه الأمة التي ضلت، فعبدت الأوثان التي لا تغنى عنها من الله شيئا.

ولم تتمالك خديجة شعورها وهى بنت الأربعين وقد ردت عنها خطبة السادة من قريش، إذ خشيت أن يكونوا طامعين فى مالها وحده، فألمحت لابن عمها ورقة برغبتها فى الزواج من محمد وإن يكن دونها سناً، فقال لها:

- لعل الحلم القديم يعاودك اليوم فى اليقظة كما كان يعاودك فى المنام بالأمس البعيد، ألا تذكرين تأويلي رؤياك الشمس الساطعة التى دخلت بيتك وملائته نوراً أضاء مكة وما حولها، حتى غمر العالم؟

ألم أقل لك يا خديجة ستتزوجين، وسوف يكون زوجك مثل الشمس التى رأيتها، ومن يدري فقد يكون نبي الأمة محمداً، هذا الذى وقع اختيارك عليه، فإن فيه من المزايا ما ليس فى مثله من الرجال، وإنها لتنطبق على ما قرأت فى الكتب المقدسة.

وما كان لرجل أو امرأة فى ذلك العهد البعيد أن ينكر التعدد فى الزواج فإن خديجة بنت خويلد عرفتة فى شبابها مرتين، تزوجت عتيقا المخزومى وأباً هالة التميمى، ولم يدم زواجها إلا بضعة أعوام، ترك لها الأول بنتاً ومالاً وترك طفلين لكن الموت تخطف الزوجين فطال حزنها وزهدت فيما كانت فيه من رغد ونعمى وآلت على نفسها أن تعيش للأيتام فى بيتها ترعاهم وتتاجر بمالهم الموروث، ولكم ردت الخاطبين ودها الطامعين فى ثرائها، دون المحرومين الذى كان لهم حق فى هذا الثراء، فما نسيت المبرة ولا الصدقات. وبقيت خديجة سيدة قريش برصانتها وتدبيرها، مرموقة المكانة والكلمة عازفة عن الزواج بضعة عشر عاماً، حتى عادت لها أحلام قديمة وذكرىات طيبة، فإن قلبها كان يحدثها بغد كبير يطل على العرب بتغيير فى اعتقادهم وحياتهم، وبأن وراء الأصنام عندهم والأوهام حقيقة لا بد أن تظهر، وغير بعيد أن يكون لفتى قريش يد فى الغد المرجو القريب، ولا ينبغى أن يحول تباعد السن بينها وبينه، فقد يجد لديها المودة التى لا يجدها فى أنضر الصبايا عوداً والحنان الذى حرمه صغيراً والعون الذى يحتاج إليه كبيراً، وكأن داعياً خفياً كان يخفف حيرتها وترددها ويحفزها للعزم والإقدام.

وبعد أيام برزت عزيمتها وحنينها إلى فتى قريش وأمينها، ترغب فيه زوجاً وتخطبه، واتخذت نفيسة بنت منية دسيسة إليه تدعوه إلى الجمال والمال، وإلى المكانة والرجاحة في ذات خديجة، فرضى محمد جذلاناً منتصباً، وأقبل من غده على سيدة قريش خاطباً كأنما تدفعه إليها قوة خفية لا ترد، وسرعان ما سعى هذا الفتى الأمين إلى عمه أبى طالب، يتخافت بصوته ويحدثه بخطبة خديجة في أناة واستحياء، وقد أنصت له عمه في رفق وحنان، ثم انفرجت شفتا الشيخ الوقور عن ابتسامة كانت قد افترت على وجهه منذ خمسين عاماً.

وينهض هذا العم الحنون فرحان باسم، آخذاً سمته إلى سقيفة من سقائف قومه فيجتمع إلى الغطاريف من أهله وعشيرته، يستشيرهم بخطبة محمد، ويتسامع الناس بالنبا الجديد متناهياً إليهم بشورى ابن عبد الله، فيغبطونه ويكبرونه ويكبرونه فيه الرزانة والتدبير، وتشيع هذه الخطبة بين النساء، فتميد الصبايا من شدة اللهفة، إذ كانت كل واحدة منهن تتمنى لو كانت هي المخطوبة.

وها هم أولاء السادة المناجيد من قريش، عليهم العباءات الضافيات والعقالات المفتولة، يتبخثرون فرحاً ومرحاً.

وها هم أولاء آل خويلد، يتلقون القوم بالبشاشة والمؤانسة، وينضحون عليهم الطيوب وقد فاحت من المجامر ريح الند والصندل، فإذا استوى على المكان أهل الأسرتين، جلس بين سماطين رجل خلعت عليه السن والحكمة وقاراً وجلالاً، فاطمأن في مجلسه وخطب الجمع قائلاً:

- الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، حضنة لبيته الحرام، وسدنة لحرمه الآمن، وآتانا الحكم بالحق والأمانة.

يا معشر قريش، هذا ابن أخى محمد بن عبد الله له رغبة في خديجة ولها فيه رغبة، وهو وإن كان قلاً، فإن المال أمر حائل وعارية مستردة، وما يوزن بمحمد رجلاً إلا رجع به شرفاً وعقلاً.

فإذا أتم الشيخ الوقور خطبة الإملاك، أجابه ورقة بن نوفل بخطبة حافلة بالعزة والتأييد، ناطقة بلسان عمرو بن أسد عم خديجة الذي أشهد القوم أنه أنكح محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

ولما انتهى الخطيبان، مدت المطاعم، وضرب على المعازف وقامت النسوة شاديات، راقصات على المزاهر، فرحاً بهذا الزواج الكريم.

وأخذ داعى مكة البشير ينشر فى أحياء العرب، نبأ هذه الفرحة، فبالسعد محمد وقد زف إلى خديجة، وهى وإن يكن لها أكثر من عمره فقد أسبغت عليه من الحب والرفق والإحسان ما فاته من حنان الأمومة، وفتحت له قلباً فياضاً بالخير والإيمان ملأته مودة وسعادة وأمناً.

ودار الفلك دورات معدودات، شهد العرب فيها من خصال محمد وفعاله ما لا عهد لهم به، فأيقنوا أن لهذا الفتى القرشى شأنًا وأن فى حياته سرًا، فقد أحسوا بوادعه وشهدوا بواكبه ورضوا بقضائه فيهم كلما هاج الخصام بينهم واحتدم الخلاف والملام، وتعهدهم محمد بأمانته واستقامته فبروه وآثروه، ولكنه كره من قومه الذين أحبهم وأحبوه هذا المكر بينهم وهذا الخيف والتعسف ورثى لهم من جهالتهم التى ضلوا بها فعبدوا الأوثان، فأخذ يعتزلهم فى غار حراء.

كانت خديجة إذا نهضت فى الصباح، تفقدت محمداً فلا تجده، فتعلم أنه لبس الرداء الخشن، وأخذ زاداً من جريش الشعير وقليلًا من الملح والزيت أو التمر الذى كان يحبه، وحمل ما يروى ظمأه من ماء زمزم، ثم سلك طريق المدرج عن شمال عرفات.

كان يصدّها العقل والحياء، فلا تسأله عن شئ من أمره، بل تخلقى بينه وبين نفسه، وهنالك فى أعطاف الغار وبين الشعاب طابت له العبادة والزهادة، متحنثا فى الغار الليالى ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة وبناته بالمودة والحنان متزوداً من محبتهم لمثل لياليه السابقات فكان يرنو إلى السموات العلى، مشوقاً متلهفاً، ويجتلى من آيات ربه نوراً يتراءى له بين الأرض والسماء.

سبحانك اللهم هذا نبيك الموعود ورسولك المرصود يتفكر في خلقك
ويلتمس لقومه خيراً مما هم فيه.

ويحدث خديجة برؤياه الصادقة، فما كان يرى شيئاً في المنام إلا تحقق في
اليقظة، وأخذت تطوف بضميره الخواطر وتنازعه نفسه إلى صرف قومه عن
السوء والبغى، فيتراءى له النور، ويعتريه القلق والوجل، ويمضى إلى زوجته
خديجة يحدثها بما يرى، فتبشره بالنبوة، وتثبت قلبه، وترفعه عن روحه، ثم تدلف
إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فتسر إليه حديث محمد، ويجهر هو بتأويل ما
حدثته به فيقول لها:

- لقد جاء محمداً ما كان يأتي موسى من قبل.. وإنه لنبي هذه الأمة.

وهذه ليلة حامية حرور من ليالى أم القرى، لا ترى في ظلامها غير
النجوم الشاحبة، ولا تحس إلا النسمات الفاترة من وراء النخيل، وخديجة عند
كوتها المعهودة، ترتقب عودة محمد وقد أرسلت إليه بعض رجالها فاستسلمت
إلى خواطرها، ويمتد خيالها على جناح الذكرى إلى ماضيها البعيد، إلى اليوم
الذى احتفلت فيه قريش بعيد لها، وكانت خديجة بين النساء عند وثن من
الأوثان، فتصدى لهن أحد الأخبار منادياً:

- يا نساء تيماء: سوف يكون في بلدكن نبي يقال له محمد، فأيا امرأة
أتيح لها أن تكون له زوجاً فلتفعل..

فرجمته النساء بالحجارة وأغلظن له القول إلا خديجة، فإنها أطرقت وكأن
شيئاً وقع في قلبها من تلك النبوة الموعودة، وما تزال خديجة سادرة في
ذكرياتها، حتى يعود محمد من خلوته البعيدة، وقلبها يؤكد بأنه الرسول
المرصود.

وإنه ليرجع ذات مساء من مجتلاه، فيتراءى له الروح الأمين ويحسه لا
بشراً سوياً ولا خيالا أو رثياً، وإنما يسمع حفيفاً لطيفاً، وخفقاً رقيقاً كخفق
الأجنحة، طوافاً من حوله حواماً عليه، يسمعه ولا يدركه، ويحسه فلا يتبينه،
وإذا صوت ندى وادع يناديه: يا محمد..

- «اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق».

فرجف محمد ووقف في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر، وسرت في جسمه رجفة اقشعر لها بدنه، فتحامل على نفسه وجعل ينحدر في طريقه ذاهلاً مرعوباً، متمتما بهذه الآيات التي تلقاها، حتى إذا بلغ مأمنه أقبلت عليه خديجة دهشة حيرى، إذ رأتة على غير ما ألفت منه، وهم بالكلام، فلم يستطع، فأخذ يغمغم خائفاً:

زملونى.. زملونى..

فسارعت خديجة تدثره وتزمله، فإذا هو ينهض بعد قليل هادئاً مطمئناً، فتتنضو عنه ثيابه التي بللها العرق، وقد تضوع منها ريح كأحسن الطيب. ويستوى محمد في جلسته كاشفاً لخديجة عن سره المكنون، ويقرئها وحى الرسالة فتؤمن به وتترفق، وتؤيده بحبها وحنانها قائلة:

- أبشر يا محمد واثبت.. فوالذى نفسى بيده، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.. ولن يخزيك الله أبداً، إنك لتصنع الخير، وتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتعين على نوائب الدهر..

كان فؤاد خديجة أول فؤاد خفق إيماناً بمحمد، فرفدت بخفقاته قلبه، ووكدت رسالته، ولقد تردد صدى صوته الأول، بين جوانحها بأول ما تنزل عليه من القرآن فكان لها على الرجال فضل السبق إلى الإسلام.

ويخرج محمد من صمته وعزلته، وينهض برسالته بشيراً ونذيراً، فيدعو قومه للحق والخير وينهاهم عن المنكر والباطل، فيستجيب له الضعيف والملهوف ويتأبى عليه المارد والمكابى، ويمتنع العاتى والمأكر، ويدرك العقلاء من قرش أن محمداً وإن لم يمسسهم بسوء فإنهم يخشون على المألوف من أوضاعهم وتقاليدهم أن يبدلها دين محمد ويحولها، فهو يدعو إلى المساواة بين الحر والرقيق وبين الغنى والفقر، فكذبوه وعذبوه، وخذلوهم في دعوتهم، فما تحرف ولا تخوف، وخديجة من ورائه تشد أزره، وتهون عليه ما يلقى من مكروه وعمه

يأسى عليه ويحمله، ويرد عنه السوء، ولكن محمداً وقد ضاق بأعدائه الذين يأترون به ويصحبه المؤمنين، فإنه ليلتمس التأييد والمؤازرة من أنصاره بمكة، ويشد عضده بالأبطال الذين أحبوه وكانوا في عونته ورسالته.

وكان عمه أبو طالب سيد قومه محبوا مهيبا، فلما مضى محمد في دعوته سراً وعلائية غضب الملا من قريش، وقالوا متلاومين ناقمين:

ما نرى إلا أننا مددنا في وهمه، وطولنا له في زعمه، فهو يدعى أنه يتلقى أخبار السماء ليبلغها للناس، ويدعوهم إلى بدع من الأمر، ما سمعنا بمثله في آياتنا الأولين..

وراحوا إلى أبي طالب غضابا عاتبين، فطلبوا إليه أن يكفيهم محمداً أو يكفه عما يفرق فيه بين المرء وزوجه، ويجمع بين الحر وعبيده، وإن لم يستطع فليخل بينهم وبينه، فإنهم رادوه عما فتن به قومه رداً عنيفاً لاهوادة فيه ولا تأجيل.

فسار إليه أبو طالب وكلمه بشأنهم فقال محمد:

- والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك فيه..

وقاضت دموعه حزنا، فأشقق عليه عمه وأدركته خشية على ابن أخيه، من هؤلاء الماكرين الغادرين، فهم يسوعونه فيه وهو يوادعهم تارة ويردعهم أخرى، فكان أبو طالب دريئة لمحمد ومقرعا له، ومحمد مشفق مما يلم بعمه من أجله، ولكن لا معدى له عن أن يلوذ بكنفه ويعوذ بمروءته وإن كلفه حرجا وأرهقه عسراً وجدلاً.

ذلك كان دأب عمه الحنون الوقور، فإذا أقبل محمد على بيته مشقلا بأحزانه، وجد البشاشة على وجه خديجة، فخففت عنه شجونته، ونسى كل شيء دون البيت، ثم خف إلى بناته الوديعات يمس رءوسهن، ويمسح عليها بيده المباركة.

وما أكثر مالقى بعد عمه أبى طالب، من عنت قرش وعتوها، فغدا بيته موضعاً للسلوى والرجاء، فإذا ضاق بالخطوب شكا إلى خديجة بشه وهمومه فهونت عليه بلواه، وعاد أقوى مراساً وأشد عزماً.

وما هاله إلا الموت الذى أخذ عمه وتركه وحيداً فى أهله المعنفين المكابرين، فأحس وحشة وهما، وقد كشف عنه وخلاه غرضاً لسهام أعدائه، فازداد ركونه لخديجة وتعلقه بها فهى الودود الولود التى آمنت به من قبل ووهبت له حياتها وتركته لسجيته ورجاوته فى التأمل والعبادة والإلهام.

وباهول ماراعه حين ماتت أم أولاده، فقد أحس أن كل شئ خلا عنه فى الحياة إلا ربه الذى اصطفاه لإكمال دينه، وإتمام نعمته، فهل كان فى وحدة حزنه بعد هاتين المصيبتين يذكر غير عمه الذى كفله ورعاه، ويبكى غير زوجته التى كانت طوال خمس وعشرين عاماً ملاذه وحماه؟ وقد ملأت بيته مودة وأنسا بيناتها الحنونات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

فلما فقدوها لجأ إلى شفاء روحه، فأحب حبيب خديجة وقرب قريبها، فكان يطعم الكلاله من مالها ومواليها، وقد أدخل قلبه فى معتكف الأحزان طوال عام سماه عام الأحزان.

ووجد الأعداء فى حزن محمد عليه السلام لوفاة زوجته وعمه ما أرت العداوة والضغينة فى صدورهم، إذ لم يطفئها من قبل حصار ولا تشريد أو تنكيل، وقد هالهم ثبات الذين فروا إلى المدينة بإيمانهم ودينهم فأثروا الهجرة وفراق السكن والأرض التى ضمت الأحباب.

وكانت هذه الهجرة بمشقاتها ومعاركها نقطة انطلاق وانقشاع ظلمات بعضها فوق بعض حتى عمت الآفاق ودوت دعوتها فى القريب والبعيد وقد بدأت سراً وتباعاً وبدهت أعداءها بما لم يكن فى حسابانهم، فمن صبر على أذاهم عجيب إلى انفلات الثائرين والمؤمنين إلى «الحبشة» وأطراف الحجاز.

فلما ماتت خديجة كانت الرسالة قد انتصرت بتعاليمها وآياتها وبذل
الفداء لها والوفاء.

وقد أغمضت خديجة عينيها إلى الأبد بعد أن شهدت المعارك في سبيلها
والضحايا، ونعمت بنصر الله فقد نصرته بإيمانها برسوله وبذلها المال والمعروف
للمؤمنين المعوزين والأرقاء. وكان منهم زيد بن حارثة الذي عطف عليه محمد
وآثره وطلب إلى زوجته خديجة أن تعتقه ليتبناه على عادة العرب، واستبقاه
لديه كولد له حتى دعى زيد بن محمد، وكان ثاني المسلمين من الغلمان بعد
على بن أبي طالب.

ولئن تزوج محمد بعد خديجة لأسباب اقتضتها رسالته ودعوته، فلم يكن
لينسى خديجة، وبالرغم من إعجابه بنسائه الصبايا والمسنات، وفيهن عائشة
كالزهرة، وزينب كوجه الصبح ومارية كنسيم الإسكندرية وأم سلمة كأنوار
الحكمة، أما خديجة فلم يبدله الله خيراً منها، وطالما كانت عائشة تغار منها
وهي تحت التراب أكثر مما غارت من أزواجه ضراتها اللاتي كن يعشن معها،
وينفسن عليها هذه المكانة التي تلقاها من رسول الله دونهن.

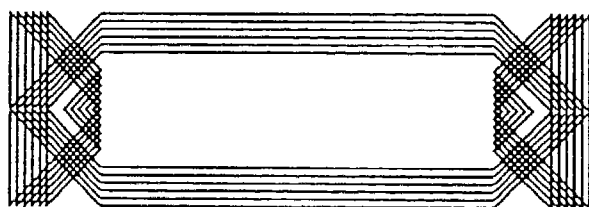
وبقى رسوله الله وفيها لذكرى خديجة، حفيأ بأهلها، لم يملأ قلبه بمثل ما
ملأت، فقدت آمنت به حين كذبه الناس، وواسته بודהا وبمالها، حين تخلوا عنه
وحرموه، ورزق منها بنيه وبناته، وكانت الزهراء أنضر الزهرات التي عمت
ثمراتها دنيا العرب، وعبق التاريخ بطيب ذكرياتها وفداء ولديها، وكان الحسين
منها حامل راية الشهداء وكرامة الأبطال.



سودة بنت زمعة

(الهامرية)

«والله ما بى على الأزواج من حرص، ولكنى
أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك»
من كلام السيدة سودة بنت زمعة للنبي ﷺ



آلمت الرسول وفاة خديجة، فأحس بعدها وحشة ممضة، وكان ينظر إلى بناته ووجوههن فيزداد ألماً وهماً، وتصل إليه أخبار السفهاء والأعداء وهو فى قلقه وحزنه فيأسف. حتى نزل بالصحابة وكبار المؤمنين والمؤمنات كثير من النكبات فوافق الرسول بعضاً منهم على الهجرة والفرار من مكة إلى الحبشة التى كان يحكمها النجاشى المسيحى الذى سجل له التاريخ مجداً ومآثر بالعدل والسلام.

لقد انطلق نفر من الذين ضاقوا بأذى قريش إلى الأرض البعيدة فركبوا البحر وقطعوا البر بدينهم وإيمانهم ليخلصوا من عدوان المعتدين وطغيان المكابرين.

وفى حماية المليك الحبشى وجواره لقى اللاجئون إليه رعاية كريمة، غير أن الطغاة من قريش ثاروا وافتروا لهذه الهجرة وحسبوا حساباً لما قد ينشأ عنها فأرسلوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة إلى النجاشى والرهبان بأن يعاونوهم على رد الذين فروا إليهم بدين جديد يأباه قومهم، فأبى الحبشان أن يستجيبوا لما طلب الرسولان حتى يسمعوا قول المهاجرين، فدعى هؤلاء للمثول بين أيدي النجاشى ورجال دينه، ولما وقفوا آمنين سألهم بلسانه ولغته:

- كيف فارقتم دين قومكم وجنتموتى بما لم تدخلوا به فى دينى؟

فأجاب جعفر بن أبى طالب:

- أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وأمانته، فدعانا لتوحيد الله وعبادته وترك ما كنا عليه من عبادة الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم والجوار والكف عن الدماء ونهاننا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

فعرفنا هذا الرسول وهو محمد بن عبد الله واتبعناه وعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، فهاج قومنا وغضبوا ونكلوا بنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، ولما ازداد بطشهم وقهرونا بطغيانهم فررنا بديننا الجديد إلى جوارك الكريم على بعد الدار والمزار وطول الشقة.

فقال النجاشي: أتخفظون كلاماً مما جاء به رسولكم؟

فأخذ جعفر يتلو عليه آيات من سورة مريم، فيها ذكر المسيح، هش لها الحبشان ومليكم ودار حولها تحاورهم، ولما أحس ابن العاص أن هؤلاء الغرباء لم يقتنعوا بما قال في المهاجرين الفارين وقد أعجبهم ما سمعوا من جعفر جعل يحرضهم على طرد الذين جبهوه بالحق، وذلك بدس الريبة بين الإسلام والمسيحية وهما متلاقيان مؤتلفان، فرفض النجاشي طلبه ولامه على استمساكه وقومه بالوثنية قائلاً له:

- هؤلاء الذين لجئوا إلينا بدينهم هم في حمانا ومعنا، وإن لم تربطنا بهم روابط لسان أو نسب.

وكان في هؤلاء المهاجرين بعض النسوة ممن رافقن أزواجهن راضيات بما صادفن من المتاعب، وهن من الفضليات السابقات إلى الإسلام، فيهن سودة بنت زمعة وقريبات لها عامريات، وكان زوجها السكران بن عمرو العبشمي من الذين أمضهم فراق مكة على ما لقوا في الحبشة من رعاية وأمان، فلما علم وصحبه بأن رسالة الرسول في غيابهم عن مكة فتحت قلوباً كانت مغلقة ورفعت عن أعين الغاشمين ظلمات الكيد والعناد، عاوده الحنين إلى أهله ووطنه وإن لم يغب عنهما إلا بضعة أشهر، فحزموا أمرهم على العودة إلى حماهم الأول ورسولهم الأمين معترزين بإسلام عمر بن الخطاب الذي كان من أشد قریش عتواً ويطشاً بمن آمن بمحمد، لكنهم ما كادوا يدخلون مكة حتى شعروا بأن العدوان على أمثالهم لم ينقطع وأن في قریش من لا يزال يهدد محمداً وصحابته ولا يتورع عن إيذائهم.

على أن السكران زوج سودة عاد عليلًا مضطرباً لم تطل به العلة فقد اشتدت حتى قضى فحزنت سودة عليه ويكنه طويلاً ولولا مواساة صواحبها لشق العزاء فيه.

وتلقى الرسول رجعة المهاجرين بالإشفاق والأمل فقد استراح إلى انطلاق رسالته وخروجها من مكة إلى الحبشة وإن وجد المكاييد في سبيلها، والوحشة من أجل حاملها، وحين عاد أكثرهم وانضم إليهم عمر بن الخطاب غداً موقف قرش منهم غير الذي كان، فإذا شغلت هذه الحوادث الكبرى محمداً فإنها أنسته زوجته التي حملت معه هموم العيش والرسالة، فلما فقدتها تفقد أنسها وعونها، وتفقد عمه أبا طالب الذي رعاها صغيراً وأيده كبيراً.

كان صاحب محمد يرجون له ما يخفف عنه اللفة واللوعة بعد خديجة بزواج يعيد لبيته وبناته السلوى ويؤنس وحدته إذا خلا إلى نفسه، ولم تكن نساء الصحابة أقل تساؤلاً عما يزحزح الكآبة عن بيت الرسول حتى أقدمت خولة بنت حكيم رفيقة سودة في الهجرة إلى الحبشة وزوجة عثمان بن مظعون أحد العائدين منها ليشاركوا في عبء الجهاد والدعوة.

لقد مضت خولة إلى مجلس محمد تحييه برجاء وتقول له بشجاعة وحنان:

- كأنى أراك يا محمد وقد دخلتكم خصلة لوفاء خديجة، هلا تزوجت وعدت إلى ما كنت فيه من بشاشة؟

فهز الرسول رأسه وقال:

- وهل مثل خديجة تستبدل؟

فقالت خولة: يرحم الله خديجة.. ليس كمثليها في نساء قرش من تحل محلها، لكنك يا رسول الله تحس الوحشة بعدها، فما قولك بزواج يرضيك؟

فتبسم محمد وقال لبنت حكيم:

- ومن تريدن لى يا خولة؟

فأجابت وكأن تدبيرها سبق سعيها:

- لا أجد أجدر بك من عائشة بنت صاحبك أبى بكر.

فهش الرسول وقال:

- هذه صغيرة ياخولة، وبيتى وحياتى يتطلبان تدبيراً من كبيرة.

وخطرت ببال الرسول هذه الطفلة التى كان يراها فى بيت أبيها تتوقد ذكاء وتتكلم بما يدل على أن فطنتها تسبق عمرها. وذكر محمد وخولة بين يديه صداقة أبيها وعونه وتأبيده فود لو تكون عائشة رابطة قرى ولكن..

وحين قطع الرسول كلامه قالت خولة:

- لا تدع أحداً يسبقك إلى عائشة، تستطيع أن تخطبها وتمهل أهلها حتى تكون لك أهلاً، والآن عليك بكبيرة ترعى بيتك وتحنو على الزهراء.

فسألها الرسول:

- هاتيهما، على أن تكون منا وفينا؟

قالت خولة: هذه سودة بنت زمعة، وإن جاوزت صباها وخلت ملامحها من الجمال فإنها رزان مؤمنة، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السكران وذاعت الويل فى الذهاب معه والإياب حتى مات عنها وتركها حزينة مقهورة، لا عون لها ولا حرفة، وأبوها شيخ كبير تأبى علينا..

ولم تكد خولة تتم كلامها حتى شكرها الرسول وأحسن أن محنة سودة تهددها فى دينها، فلماذا لا يضمها إليه وتعيش فى كنفه زوجة معزة مكرمة؟ على أن خولة بنت حكيم ما كادت تتلقى جوابه بالرضى حتى سارعت إلى بيت أبى بكر تطلب عائشة زوجة للرسول على أن ينتظر حتى تنهى له وتعينها السن على الحياة معه.

وسعت خولة إلى بيت زمعة بن قيس وكان مكفوفاً مضعضعاً يتوكأ على عصاه من شيخوخة وعياء، فلما ألفت عليه تحيتها الطيبة سألتها:

- من تكون صاحبة التحية؟

فأجابت: خولة بنت حكيم السلمية، وقد أرسلنى محمد بن عبدالله أخطب سودة زوجة له..

فنادى زمعة بنته الأرملة الحزينة وقال لها:

- تزعم خولة أن محمداً أرسل يخطبك فإذا أحببت أن يكون لك زوجاً دعونا إلينا.

وكانت سودة بنت زمعة تعلم أن فى هذا الزواج مواساة لها وتكريماً لصبرها وجهادها، فدخلت بيته ليعول عليها برعاية صغيرته الزهراء وشقيقاتها زينب ورقية وأم كلثوم.

وانصرف الرسول إلى دعوته مطمئن الخاطر راكناً لتدبير سودة ورسالتها، وإيمانها به رسولا وزوجاً، كرمها بعطفه ورحمته وآواها، وقد أسعدها أن يجعلها بهذا التكريم أم المؤمنين، فلما دخلت عائشة بيت محمد زوجة محبوبة مرتقبة تملأ الأعين بصباها ومرحها وذكائها شاعت سودة أن تتخلى عن مكانها فى بيت محمد، فهى لم تأخذ منه إلا الرحمة والمكرمة، وهذه عائشة تدنيها من الرسول مودة وإيثار واعتزاز بأبيها، وملاحة يهواها الرجل وقد أنس محمد لمرحها وصباها فى بيته فانقبضت سودة وبدت فى بيت زوجها كالسجين. ولما جاءها يوماً وسألها إن كانت تريد تسريحاً، وهو يعلم أن ليس لها فى الزواج مأرب إلا الستر والعافية وهما فى عصمة الرسول ونعمة الله.

قالت سودة وقد هدأت فيها غيرة الأنثى وإن بلغت مطالع الشيخوخة:

- يارسول الله، ما بى من حرص على أن أكون لك زوجة مثل عائشة، فأمسكنى، حسبى أن أعيش قريبة منك، أحب حبيبك وأرضى لرضاك...

ووطدت سودة نفسها على أن تروض غيرتها بالتقوى وأن تؤثر عائشة على نفسها بعد أن تزوج الرسول حفصة بنت عمر بن الخطاب جبراً لحاظرها المكسور بعد وفاة زوجها وسنها لم تجاوز الثامنة عشرة وأبوها يريد أن يعصمها من الفتنة فعرضها على صاحبيه أبي بكر ثم عثمان، ولم يكن تعدد الزوجات ولا تفاوت الأسنان بينهما بالأمر المنكر، ومحمد يصطنع في رسالته ما يشد عضده ويؤيد دعوته في هذا التعدد.

على أن سودة هانت لديها الحياة مع ضرتين نديتين كلتاها يعتز بأبيها الرسول كما يعتز بعلى وعثمان، لكنها كانت أقرب إلى عائشة ترضيها لمرضاة زوجها وإن لم تضق بمن جاءت بعدها وبعد حفصة.

ولم تنس سودة نفرأ من قومها نفرت منهم لتأبيهم على الرسالة فإنها رقت لأسراهم يوم بدر وحزنت على القتلى منهم ولما رأت أبا يزيد سهيل بن عمر أخت زوجها السكران مضمومة يدها إلى رقبتة بحبل لم تملك نفسها فصاحت:

- أين أبا يزيد؟ أسلمتم أنفسكم وأعطيتكم بأيديكم، ألا متم كراماً؟

ولم تكن سودة تعلم أن محمداً كان يسمعها فقال لها:

- يا سودة أعلى ربك ورسوله تحرضين؟

فاستحييت سودة، وقالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مضمومة يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت.

فتبسم الرسول ووعداها خيراً بشأن الأسرى حتى اتفق أصحابه على قبول الفداء من أجلهم.

ويبقى محمد برأ بسودة يعاملها بالرفق والرحمة ويستمتع لفكاهتها الطيبة، وحكمتها الموهوبة.

ولما اعتزم حجة الوداع أخذها مع زوجاته إلى مكة لتؤدي هذه الحجة
مستأذنة في رمى الجمرات بالمزدلفة قبل الازدحام في موعدها.

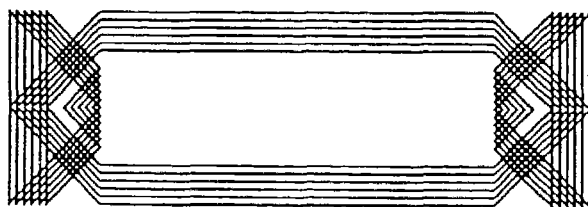
وامتد العمر بسودة إلى أيام عمر بن الخطاب في خلافته، فأكرمها وأرسل
إليها ما يعينها على العيش، فتقبلت معونته بالشكر والدعاء، ولم تشأ أن
تستبقئها لنفسها، وقليل منها يكفيها فوزعتها بين المحرومين والمعوزين. ولم
تقطعها سيدات قومها وفيهن نسوة الرسول وجاراتها حتى كانت وفاتها بعد
عمر طويل عرفت فيه بأنها من أمهات المؤمنين.



عائشة بنت الصديق

«خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»

من حديث النبي ﷺ



لقد انطلق أبو بكر الصديق من فوره بعد صلاة العشاء، فما تلكاً مع صحبه. ولم يمض إلى حيث يسمر بعضهم، بل دلف إلى بيته مبكراً على غير عادته، فقرأت زوجه أم رومان على ضوء السراج ملامح وجهه وتبينت فيها بشاشة يغشاها قلق، ولما استقر في مجلسه صامتاً سألته:

- كيف كان أمرك مع جبير بن مطعم ووالدته؟

فتبسم أبو بكر ابتسامة الظافر وأجابها:

- نجاني الله من نقض العهد والتخلي عن وعد قطعت، إذ صارحت اليوم مطعم بن عدى والد جبير بالأمر الذي بينه وبيننا، فقلت له:

- ماذا تعتزم بشأن جبير وعائشة؟

وجم مطعم ولم يحمر جواباً، وجعل يغمغم كلاماً لم أتبين منه شيئاً.. فتصدت له زوجته ورفدت قوله بحيرة تلجلجت فيها وقالت:

- نخشى يا بن أبى قحاقة أن تصبئ جبيراً وتدخله فى دينك إن زوجناه عائشة!

ولم يكد يستقر هذا الحوار فى سمع أم رومان حتى استخفها الفرح فقالت لزوجها:

- الحمد لله الذى نجاك من إخلاف الوعد، وما أخلفت عمرك وعداً، فهذه بنتك عائشة قد أذهب الله من طريقها جبيراً وأهل جبير، فادفعها إلى رسول الله تلق الخير والبركة.

وصاحت بصوت يغالبه الاعتزاز والفرح:

- على بعائشة... أين عائشة؟

فقال أبو بكر:

- مالك ولها؟ دعيها بين إخوتها، واملكى نفسك يا أم رومان، فما أحسب إلا أنك خرجت عن طورك.

- كيف لا أفرح بهذا الشرف الذى يزيدنى مجداً بقرابة الرسول بعد صداقته؟



كان من مآثر خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون، أنها أخرجت بتدبيرها ولباقتها نبيها محمداً من عالم أحزانه إلى دنياه المحيطة به، فهو يبدى ابتساماً لصاحبه، ويقبل على صلاته ومجلسه وضاح الجبين مشرق القسمات، ولكن فى قلبه شجواً عميقاً لم يفارقه منذ فارقت خديجة، فإذا خلا إلى نفسه أو فزع إلى بيته، تهرم بوحده وضاق بأعدائه، فطافت بخاطره خديجة التى كانت له مفزعاً ومعاوناً، ونظر حوله، فذكر أنها كانت تقعد هاهنا وتشرب بهذه الكأس، وتجلس على هذه الوسادة..

كذلك ألهم الله خولة أن تتقدم إلى نبيه الكريم وتخرجه من شجونه فقالت:

- أفلا تزوجت يا رسول الله لتسلو بعض حزنك وتؤنس وحشتك بعد خديجة؟

فسألها:- من تريدن يا خولة؟

فأجابت:- سودة بنت زمعة أو عائشة بنت أبى بكر.

ومضت خولة إلى أم رومان، فحدثتها برغبة الرسول فى عائشة، ولما أقبل الصديق وسمع حديثها تبسم وقال:

- كيف تجوز عائشة للرسول وهى بنت أخيه؟

فراحت خولة إلى النبي تستفتيه، فكان جوابه:

- إن الصديق أخى فى الدين، لا فى الرحم، وبنته حلال لى.

ففرحت أم رومان وتقبل الصديق خطبة صفيه ونبيه بهزة اعتزاز، فقد أمسى فى حل من وعده الأول ونجا من حرجه وحيرته.

وجلس أم رومان مبتهجة جذلى، تذكر تحت المساء فضل خولة فى مسعاتها الطيبة، ويستجيب لها زوجها الصديق ويتلطف ويمضى فى حديثه عن النبى الكريم الذى أحبه وآثره، وصاحبه وبره، وبوده لو يفتيده بالروح، وحمد الزوجان لخولة رأيها وسعيها، ولكنهما ذكرا أن عائشة ستغدو زوجاً للرسول وهى فى سن صغيرة تلعب مع لداتها، أمثل عائشة تليق بالنبى وتدبر بيته وترعى بناته على حداتها؟

بمثل هذا القول كان يتحدث أبو بكر وزوجه أم رومان فانتھيا إلى أن عائشة أوتيت على حداتها ملامح النساء الرصينات، ومايهم صغر سنھا فقد ينتظر الرسول تفتحها ونضجھا بضع سنين.

وكانت عائشة بيضاء موردة الخدين ممشوقة القد، خفيفة اللحم ودون اليفاع، وقد اختلفت الروايات فى تحديد سنھا التى جاوزت العاشرة وقت الزواج.

ولعل أمھا رقت لها، وقبلتها وفدتھا، بمثل ما تفدى به كل أم بنتھا فى تلك الفرحة. ونظر إليها أبوها نظرات الحنان والإشفاق، فملأ عينيه وقلبه منها، فهو يرى هذه الزهرة فى روضته حتى يحين قطافها.

وقدم الرسول أربعمئة درهم صداقاً لعائشة كصداق بنته الزهراء وكان زواجها فى العام الثانى للهجرة، فوجد النبى فى هذه الزهرة، ريحانة عطرة، وقد انتظرھا حتى وافى نضرتها فنقلھا من روضة أبيھا إلى بيته، ورآھا النبى كأمھا التى قال عنها: إنها من الحور العين.

ولما جلست عائشة في بيت محمد أحست بما تحس به كل فتاة من لداتها
تترك بيت أهلها الذي ألفت به لا تعرفه، ولكن الرسول غمرها بالحنان،
وأضفى عليها من حبه وأنسه ما أنساها وحشة الانتقال من عناية الأبوين إلى
عناية الزوج الرؤوف، وقد أدركت بذكائها أنها أصبحت زوجاً لأعظم رجل في
قومها، فشاع في نفسها كبر بغير زهو، وودت لو تعجلت السنين ليستتم
صباها وتنضج أنوثتها فتغدو كبرى النساء وأحدثهن المثلى.

ولا تلبث عائشة أن يعاودها الحنين إلى لداتها وصواحبها. فتدعوهم إلى
بيتها، ليتسلين معها في غيبة زوجها، وقد يضرين على الدفوف ويجمعن
للغناء، فإذا باغتهن الرسول حبسن أصواتهن وأمسكن أيديهن حياء منه
وخوفاً، فيضحك لهن وينادى عائشة أن يعدن لما كن فيه من لهو ومرح، حتى
يرد إلى نفوسهن هدوءها وفرحها.

وكان يقع مثل هذا من عائشة وصديقاتها في السنة الأولى من زواجها،
فلم يكن يؤاخذها الرسول، بل كان يترفق بها ويوادعها، ويحرص على سرورها،
فترفع صوتها فوق صوته، ويجيبها بصوته الهادئ الحنون، فإذا تكلمت على
سجيتها وتجملت هش لها الرسول وداعبها، وأحسن البر والرحمة والحنان.

وقد يأتيها أبوها، فتبقى على سجيتها تتكلم بدلال، وربما رفعت صوتها
أو جادلت، فيضحك الرسول ولكن أباه ينهرها ويؤنبها ويهم بضربها، فيرده
النبي عنها بحلمه وحنوه، ويحميها بيديه الكريمتين قائلاً:

- دعها يا أبا بكر. فليس أحب إلي من تدليلها!

وقد أذن الرسول ذات مرة لفتيان الحبشة أن يلعبوا بحرابهم بين يديه،
فدعا عائشة، ووطأ لها عاتقه وحاط وجهها بيديه، لكي يشهدها تلك اللعبة،
ويقيت تتطلع وتشرب بعنقها وترقب براعة الفتیان، حتى اكتفت وشمت النظر
إلى ذلك اللعب بالحرايب، ثم وقفت تستريح وعادت يحوطها الرسول بحنانه
وحمايته، وينفذ لها رغبتها هادئ النفس طويل البال.

كان الرسول فى مستهل زواجه بعائشة يمزج حبه لها بشعور أب رحيم
وزوج بر حليم. إذ كان فى عمر أبيها، فلقبت عنده الرفاهة والدلال، ونعمت
بمودته وحديثه فأفادت خيراً كثيراً. ولم تلبس هذه العشرة أن مضت فإذا بعائشة
ناعمة الملامح ظريفة الكلام متألقة الأنوثة والذكاء، وما كانت لتبقى فى لهو
الحداثة وهى فى عشرة الرسول ووقاره وفى تفكير عميق يتوقد، فأخذت تحفظ
القرآن وتتفقه فى الدين، ولا يفوتها مجلس الرسول الذى اختص به المؤمنات،
يجيب السائلة ويعلم الجاهلة، حتى وعت عائشة أحكام الدين وآداب القرآن،
فكانت تنوب عن النبى فى كل فتوى سئلت عنها وتخرجت منها النساء، وقد
أخذ عن عائشة أم كلثوم وابنا أخيها محمد القاسم وعبدالله، وروت عنها
حفصة وأسماء بنتا أخيها عبدالرحمن، وكان أكثر الرواة عنها أحب الأقربين
إليها عروة بن الزبير وأخاه عبدالله البطل ابنى أختها أسماء بنت الصديق.

وكان عروة شاعراً، ما نزل بخالته شيئاً إلا قال فيه شعراً، حفظته هى
وأنشدته، وتمثلت به راضية راوية.

ومضى محمد قدماً فى نشر دعوته، فإذا عائشة تخطو مثله فى تبليغ
رسالته وتأييد سنته، وتفقه من أحاديثه ومأثوراته ما أعدها للتعليم وساعدها
فى التوجيه والتبصير.

لقد شغلت حياتها فى توطيد الإيمان وتشقيف النساء وإرشادهن، وما فتئت
تبليغ الرجال ما وعت من الحديث، حتى أتى عليها حين كانت فيه حجة فى الرواية
عن الرسول، ولعل فضلها فى العلم كافاً فضل خديجة فى التدبير والمال إذ
كانت معاوناً له على تعليم الناس أمور دينهم وردهم إلى الخير والهدى
والصلاح.

ولم يكن حفظها للحديث بغير وعى لدقة مراميه، وإنما كانت عائشة
واقفة على تاريخه ودواعيه، مما أعيا على الصحابة والتابعين، فما أشكل على

الفقهاء والعلماء أمر إلا فزعوا إلى عائشة وسألوها عنه، فوجدوا عندها علماً فيه، فكانت أفقهم في الدين وأعلمهم بأحكام الشريعة وآدابها ولم يكن بين أصحاب الرسول من هو أروى منها ومن أبى هريرة، على أنها كانت أسبق منه وأوعى، وطريقتها في التفهيم والتعليم لاسيما للنساء أحكم وأوفى.

ولئن قنعت عائشة في حياتها الزوجية بمودة محمد الذي كرمها بأن تكون أم المؤمنين إذ لم توهب ولداً فإنها لم تقنع بما تلقت من معرفة في بيت أبيها الصديق الذي كان أدرى قومه بأنساب العرب ومزايا كل عشيرة وقبيلة، فلما تزوجت الرسول ازدادت علماً بما تعلمت وأخذت معرفتها تتسع وتشمل كل ما يتصل بالقرآن والحديث والرواية والتاريخ.

وكان محمداً إذ ترك عائشة تمشي على رسلها وسجيتها في وعي العلم وحفظ الحديث والسنة! إنما كان يريد أن يجعل منها للمؤمنات أسوة حسنة ليكون طلب العلم فريضة عليهن مثل الرجال، وفي هذا رد بالغ وحجة دامغة على من يقول بتجهيل المرأة وتزويدها في العلم والتعليم.

وكفى عائشة مجداً أن يجعلها الرسول زعيمة الرواة في الفقه والدين فيقول للمسلمين.

— خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء... —

وكان ذكاء عائشة وعلمها، وغرارة سننها وملاحظتها، ومكانة أبيها وتقوى أمها، أسباباً حبيبتها إلى الرسول، وقربتها إلى قلبه، ولكن هذا الحب والإيثار لم يمسكا محمداً عليها، فقد كانت الرسالة والدعوة تقتضيان أن يصهر لبعض العشائر والقبائل تأليفاً للقلوب وتوطيداً للإيمان، فتعددت زوجاته، غير أن عائشة كانت بينهن جميعاً هي الفضلى، إذ انفردت في بيت النبوة بفضائل لم تتوافر في غيرها من نساء الرسول، وحسبها أن الوحي كان يأتيه معها دونهن فعدل بين زوجاته وابتغى مرضاتهن، ولكن قلبه— وهو الإنسان— لم يبلغ العدل

فى حبه فأثر عائشة وتعلقت هى به وغارت عليه من أترابها وضراتها، وربما كانت غيرتها من ذكرى خديجة أقوى حدة وأبقى على الأيام.

فإذا رأت عائشة محمداً يبر أحدًا من أجل خديجة، لم تتماسك ففلتت من لسانها فلتات الغيرة وقالت:

- لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة!

وكانت أم سلمة زوج الرسول غيوراً، ولكن دون غيرة عائشة، وهى التى حذرت منها محمداً حينما جاءها خاطباً، فشاء الرسول أن يذهب غيرتها، فكان يوافقها ويدارها، ويرعى أولادها ويحذب عليهم، فبلغ عائشة ما يفعل النبى فلما أبطأ عليها ذات مساء سألته:

- أين كنت يارسول الله؟

- كنت عند أم سلمة..

وفلتت من فم عائشة كلمة كل امرأة غيور، فقالت:

- أما تشيع من أم سلمة؟

فلم يجد محمد بداً من الترفق بها والتعلق بمودتها، ليسليها عما فاض فى نفسها من غيرة النساء، لكن هذا الرفق والملاينة لم يثنيا عائشة عن العتاب والإدلال بمكانتها، فقالت للرسول:

- أنا لست كأحد من نسائك يارسول الله... كل امرأة منهم كانت عند

رجل، سوى...

فتضاحك الرسول وأشفق عليها من غيرة جامحة، ولم يكد يردها عنها برفق ولين، حتى تحدر على وجهها الناصع دمع غزير تفجر فيه حزنها المكظوم، وبلغ هذا الحزن قلب الرسول فيرثى لها من غيرتها ويدعو الله أن يذهبها عنها...

ودبت الغيرة وهبت فى نساء النبى حين ولدت مارية القبطية المصرية «إبراهيم»، ففرح الرسول به وأخذت الغيرة زوجاته، لهذه الأمومة التى رفعت مارية إلى مقام أمهات المؤمنين، وأدرك الرسول أن عائشة تتواطأ وبعض زميلاتنا فيأتمرن به لصرفه عن إحدى شريكاتهن، فأخذهن محمد كعادته فى صوته الهادئ مؤاخذه فيها مواساة وتخفيف، وفيها مداراة وتثقيف.

وعز على عائشة أن تحرم الولد وفى زوجات النبى ذوات النسل من غيره قبل أن يبنى بهن، فتحرق فى قلبها شعور الأمومة والشوق إلى الوليد، ولئن أوتيت عائشة الملاحاة والعلم والنسب، وكانت زوجاً لرسول الله فإن كل هذا لم يغن أنوثتها عن طلب الأمومة، والتلهف عليها.

فياله يوماً كان شديداً على عائشة، دفنت فى سويداء قلبها حرقتها ولهفتها، إذ رأت إبراهيم ابن زوجها من مارية القبطية، وقد حمله الرسول بين يديه مشغولاً به متعلقاً. فأقبل به نحوها وقال:

- انظرى يا عائشة.. أليس إبراهيم شبيهاً بى؟

فتململت عائشة وتأففت. وطافت بنفسها غيرة الأنثى الضرة، فتجافت فى الجواب، ودمدمت بكلام لم يتبينه الرسول، وإنما لحظ شحوب عائشة وغيرتها فراح مبتئساً محزوناً. فقد أظهرته عائشة الغالية على لهفتها إلى النسل، وأحس شوقها المتحرق إلى الأمومة، فترفق بها، وضاعف لها السلوى والمواساة، وشق عليه أن تقول له يوماً:

كل صواحبى لهن كنى. غيرى، يارسول الله!

فلم ينكر الرسول من أمرها شيئاً، وإنما عز عليه أن تسرف عائشة على نفسها، فلا تروض هذه النفس على الاحتمال والإذعان لقضاء الله، فأخذها بالموادعة والحنان، وجبر تلك النفس الكسيرة فقال لها:

- يا عائشة أنت أم المؤمنين!

فسرت عائشة، وحمدت لنبيها هذا النداء، وتلقته بالرضى والحنين، وعزتها كنيتهما الكبرى عن كل كنية كانت تشتهيها وترتجيبها، فاستطاع محمد بما أوتي من حكمة ولباقة أن يرد عائشة إلى الحلم والهدوء والرضى بما قسم الله.

وينفذ حنان الرسول إلى قلب عائشة فيملؤه برأ وإيثاراً. ويشرح الله صدرها للعلم والإيمان. فتعكف على رواية الحديث وتحيط بالفرائض وتقف على أنساب العرب، وقد تعاهدت ببرها الأرقاء، فأعتقت عشراً من الجوارى تحليلًا ليعين كانت حلفتها، وخرجت عن بعض إمائها ومواليها الذين كانوا لها عند أبيها، محرراً لرقابهن وزلفى إلى الله.

كان المال يأتي عائشة من أرض مغروسة وهبها لها الصديق فلا تمس يدها هذا المال؛ زهداً وكرماً، وإنما تأمر بإنفاقه في سبيل الله، وإنها لتتصدق بالألوف ولا تأنف من ترقيع ثوبها أسوة بالرسول، وتأكل ما يحضرها من الطعام دون تذمر ولا شبع كما كان يفعل زوجها.

وقد بعث إلى عائشة ابن أختها أسماء بمال في غرارتين يبلغ مائة ألف، فدعت بطبق وهي يومئذ صائمة، وجعلت توزعه في الأقربين والمساكين فلما أمست نادى جاريتها أم ذرة:

- هاتى فطرى يا أم ذرة!

فأجابتها: أما استطعت يا أم المؤمنين فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟

- لا تعنفينى... لو كنت أذكرتنى لفعلت.

وكان الرسول إذ يخفض نعله ويرقع درعه ويحلب شاته، تنظف هي ثوبها، وتقعده لمهنتها في بيتها، ويسابق الرسول إلى معونتها، فيبقى قائماً بمساعدتها حتى يخرج إلى الصلاة.

كذلك استراحت نفس عائشة من أعباء الدنيا وزينتها، على أخذها بها في مستهل صباها، فانطبعت بطوابع الرسول واقتدت بسيرته وسنته، ورضيت بأن ترقى في ذكائها وعلمها إلى القمة التي تبحج فيها أبو هريرة وعروة وعبد الله بن عمر وابن الزبير.

على أن هذه الحياة الزوجية التي لم تتجاوز العشر سنين بين محمد وعائشة كانت حافلة بالحنان والإيمان ممتلئة بالحوادث الجسام، فأشبعت سماء صافية، ولكن هذه السماء مرت بها سحابة صيف، مالبت أن انقشعت، فإن عائشة على تأدبها بأدب أبيها ونبيها لم تملك نفسها في بعض النزوات، فقد ندت من غيرتها الجامحة وتنافس ضررتها في حب الرسول هفوات تخللت حياتها الزوجية فعكرت صفاءها، ولكن حلم الرسول وسماحة خلقه بددا سحابة الصيف، فعادت مجلوة صافية.

ولعل أشد الهفوات أثراً في حياة عائشة وضررتها ذلك التنازع العنيف بينهما تغايراً وتنافساً في الخطوة عند الرسول، ثم تظاهرن مؤتمرات بالرسول وإخافهن في توسيع الإنفاق عليهن كيداً ومكراً، فهجرهن شهراً، وخيرهن بين التسريح لأهليهن أو الإمساك عليهن إن آثرن الله ورسوله والدار الآخرة، فيكن الأسوة الحسنی للمؤمنات في قناعتهم وصبرهن على متاعب الحياة، وذلك إشاراً لنصيب السائل والمحروم، واجتناباً لفتنة البذخ والترف في المعيشة، فغضب أبو بكر لتحيز عائشة إلى ضررتها ومسايرتهن في الكيد للرسول، وقام إليها. يجناً عنقها ويعنفها، ولما تعاقبت أيام العقاب، كانت عائشة أول من تلقى الرسول بعد تسعة وعشرين يوماً لم تر فيها وجهه الكريم، فأقبلت عليه مشوقه متوددة، وقبلت يده دامعة العينين، مسرورة بعودته وعفوه.

ياحسرة على عائشة! كيف كان حال ضراتها يوم شاع حديث الإفك؟ أكن بها شامتات أم بتن من أجلها مشفقات مترفقات؟

وهل حديث الإفك إلا فرية الأفاكين الذين فى قلوبهم مرض، فقد سولت لهم أنفسهم أن ينالوا ببهتانهم من زوجة الرسول وأم المؤمنين؟

وقديماً كان المفترون والخبثاء يحوكون الدسائس للأبرياء وينضحون بما فى أخلاقهم للإيقاع بمن يكرهون ويعادون، فلا بدع أن اتهموا عائشة بعفافها وشرفها، فمن قبلها اتهموا يوسف واتهموا مريم...

وكان الرسول بشراً لا يعلم الغيب ولا يستشف السرائر، فقدحت عنده التهمة يلغو فيها الذين مردوا على النفاق وامتلات صدورهم حقداً وكيداً.

وشاع حديث الإفك فى كل بيت بالمدينة، والناس منذ كانوا يكلفون بأخبار السوء والنتكر وتداول الفتن والدسياسة، وكان زعيم المرجفين عبدالله بن أبى هو الذى تولى كبر هذا الإثم، فأخذ يهمس فى كل مسمع، ويردده فى كل ندوة، واتخذ هو وصحبه من شيعته المنافقين من حديث الإفك مطعناً للرسول فى زوجته ووصمة تلصق بأبى بكر وبنته أم المؤمنين.

ولولا غفلة من عائشة جرت عليها الملامة، وكدرت صفاء النبى أياماً، لما قبيض لقالة السوء أن يأنفكوا فى أراجيفهم، ويخبطوا بدسهم كيداً لمحمد، ولكن عائشة فى زهوة العمر والمجد ولا تجارب لها وقد فاتها أن زوجها الرسول محفوف بالحساد والأعداء، بل لم تحسب حساباً لما جرى بين عبدالله بن أبى بن سلول وصحابة الرسول، من مشاحنة وخصومة قبل الغفلة التى بدرت منها وجرى بها القضاء.

كانت هذه الغفلة من عائشة فى عودتها مع النبى والمؤمنين من غزوة بنى المصطلق، وقد بات الركب قطعاً من الليل فى طريقه إلى المدينة. فخرجت عائشة

من خيمة النبي لبعض شأنها، وفي أثناء غيبتها سرى المرتحلون على عجل، وجر أحدهم البعير الذى يحمل هودج عائشة متهيئاً من مناداتها قبل الرحيل، وكانوا يحسبون أنها فى هودجها لحفتها ونحافتها والنبي مستغرق فى همومه مشغول عنها.

وتخلف عن الركب صفوان بن المعطل ليلعلم بقايا الجيش بعد قيامه ليلاً، فلما تأهب للحاق بمن سبقوه، رأى على البعد شبحاً خافقاً ما لبث أن تبينه، فإذا هو عائشة، وكان يراها صفوان قبل أن ترخى حجابها وتدنى من جلبابها، فجعل يسترجع ويردد: إنا لله وإنا إليه راجعون..

وقرب إليها بعيره، وهو يعجب لتخلفها عن الركب، ودعاها للركوب فركبت وهى تلعن الشيطان الذى أنساها نفسها حيث ذهبت لبعض شأنها وهناك فلت عقدها من جيدها، فتلفت فى البحث عن حياته، ولم تكن تتوقع أن يفوتوها على غفلة منها ونسيان النبي أن يتعهد ركوبها بنفسه وإشاره السرعة فى الرحيل خشية أن يلحق بركبه الأعداء.

ولما بلغت عائشة المدينة فى وضح النهار، رآها عدو الرسول عبدالله ابن أبى ومعه شرذمة من الأفاكين أخذت عيونهم تتكلم قبل أن تهم أفواههم بلوك الربة والبهتان، لتأخر عائشة عن قبيلها.

وشاع حديث الإفك فى الأحياء، وعائشة فى فراشها مريضة وأمها عندها تكاتها الإرجاف، فإذا دخل عليها الرسول سأل أمها بجفاء وفتور:

- وكيف تيكم؟

فكانت عائشة تعجب لصدوفه عنها وتحافيه، فتحسب أن ضررتها جورية بنت الحارث قد صرفت محمداً عنها وشغفته حباً، فاستأذنت منه أن تمرض فى بيت أبيها، وراحت محزونة النفس كاسفة البال. لجفاء زوجها ونبيها، وبقيت فى

بيت أبيها عشرين يوماً لا تدري من حديث الإفك شيئاً، حتى عادت امرأة من المهاجرين وحدثتها بما يخوض فيه الناس، فكاد يغمى على عائشة، وانسلت بعد قليل إلى أمها تعاتبها، فقد أدركت سر وجومها وصمتها، وما كانت تتهامس به هي وأبوها في معزل عنها فهونت عليها أمها، وقالت لها:

- وأية حسناء كانت غالية عند زوج يحبها ولها ضرات ينفسن عليها حظوتها ويختها، سلمت من دس حاسداتها؟

ومن يدري لعل ضرة أو ضرتين من شريكاتها ندت منهما بدافع من الكيد والحسد تهمة غاشمة، تلقاها الأفاكون والمنافقون باللغو والحفاوة فشاعت منها الأقاويل بين النساء.

وآلم الرسول هذا الدس والإرجاف. وجالت في نفسه أمور قلما تجول في نفوس الرجال مهما يبلغوا من الحلم والرصانة، في مثل هذا الموقف العصيب المريب، ولا شك أن خواطره كانت مقسمة بين تسريح عائشة وتكذيب الأفاكين. وقد ضرب للرجال مثلاً بترثه وأناته وانتظار أمر الله في أمره، ولو أنه كان متسرعاً في ظنه، وليس من طبعه الخفة والتسرع - فقطع رأياً في عائشة بناه على أقاويل الإفك لكان عمله قدوة لمن بعده إلى يومنا هذا، ولاستحكمت المظالم في رقاب الناس لدى أدنى بادرة في الظن والارتياب.

وأقبل الرسول على الشورى، دأبه في الملمات فنهذه بعض صحبه حدة غضبه، ونفوا كل ريبة في عائشة، وفيهم الرجال والنساء، لكن علماً، وقد كان شأنه الحرية في الرأي في أطوار حياته كلها، وطالما جرت عليه هذه الحرية والشجاعة قلقاً وصعاباً فإنه أشار على محمد بأن لا يعبأ بعائشة، فالنساء غيرها كثير.

وكانت هذه الكلمة من على بذرة تلك الحنظلة التي ذاقها على بعد ثلاثين عاماً في وقعة الجمل.

وهالت أبا بكر هذه التهمة الباطلة التي أراد المتورون أن يجعلوها وصمة له ومطعناً في نبيه وزوجه فقال:

- ما أعلم أهل بيت في العرب دخل عليهم ما دخل علي!

ولكن الرسول ما تبدل لصاحبه ولا تحول عن داره، فقد تسجى في بيت الصديق ذات يوم، مستهولاً تلك الغربة النكراء، فأخذه بعد قليل ما كان يأخذه عند نزول الوحى من الرعدة والرعشة حتى تصيب عرقاً، فنادى وهو يمسح العرق:

- يا عائشة، إن الله قد برأك!

وفرح الصديق بما سمع وفرحت أم رومان بهذه البشرى فتهتفا بعائشة:

- قومي يا عائشة إلى الرسول..

فأبت وتمنعت، ونهض الرسول مبشراً ببراءتها، مترقياً بها فمس ثوبها وربت على كتفها، فدفعت يده الكريمة متمردة غضبى. وأخذ أبو بكر نعله ليعلوها بها، فمنعه الرسول وهو يضحك.

وما زال بها يترضاها حتى رضيت وهدأت، فتلا عليها الآيات التي أنزلها الله تبرئة لها فزادتهم يقيناً وإيماناً.

وصفت الحياة لمحمد في بيت عائشة، وكان تلك العاصفة الهوجاء قد انقضت وساد بعدها الهدوء. فانصرف محمد إلى تأليف القلوب وتوحيد الكلمة ورعاية المؤمنين والمؤمنات.

ومر حين من الدهر، فإذا الرسول يدعو نساءه وصحبه لحج البيت الحرام، ومضى الركب في العام العاشر للهجرة وهو لا يدري أن الرسول يحج حجة الوداع، ولو كان يعلم ما كتب له في لوح القدر، لكان له شأن أى شأن. وأقبل الرسول على مكة فتلقته العشائر والقبائل بالشوق والفداء، وقد وافته من كل

فج عميق، فخطب الحجيج وأمرهم بالتقوى والتواصى بالنساء خيراً، وكان يشعر أن المنية تدعوه إلى لقاء ربه فقال للناس:

- لا أدري إذا كنت ألقاكم بعد عامي هذا..

وقد نزل عليه الوحي فى تلك العشية بهذه الآية الكريمة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» فلما أصبح تلاها على صحبه وأنبأهم بالرحيل فها لهم فراقه وضعضعهم مرضه، فلما عاد إلى المدينة كان الرسول متحاملاً على نفسه متوعكا وفى الغداة مر ببيت عائشة، فألفاها تشكو صداً، وتقول:

- وارأساه!

فداعبها الرسول بقوله:

- بل أنا يا عائشة وارأساه!

وأعادت الشكاة من صداها فقال لها مداعباً:

- ما ضرك يا عائشة لو مت قبلى، فقامت عليك حتى يواروك التراب؟

فغاضتها هذه الدعابة وشقت عليها وبعثت غيرتها الدفينة فقالت:

- ليكن ذلك حظ غيرى يا رسول الله! والله لكأنى بك وقد رجعت بعد

موتى إلى بيتى، فأعرست فيه من جديد.

فضحك الرسول وسرى عنه حتى سكن بعض ألمه، فقام مطوفاً بزوجاته، حتى إذا كان بحجرة ميمونة، عاوده الألم فدعا إليه نساءه واستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة، ثم خرج عاصباً رأسه معتمداً فى مشيه على عمه العباس صهر ميمونة وعلى ابن عمه على بن أبى طالب.

وطلب الرسول أن يصبوا عليه الماء إطفاء للحمى التى ألهمت حشاه، فلما خفت عنه خرج إلى الصلاة فخطب المؤمنين واستوصى بالأنصار خيراً، فقلقوا

عليه، واضطربوا، واشتدت به الحمى وعانى من لهيبها أشد الكرب حتى حز
الألم فى نفس الزهراء فصاحت:

- واكرب أبتاه!

ففاضت دموع النبى وقال:

- لاكرب على أبيك بعد اليوم!

وشق النزاع على الرسول فإذا هو صامت لا يتكلم، فوضعت عائشة رأسه
فى حجرها، حتى قبض بين سحرها ونحرها.

ولم تملك عائشة نفسها فخرجت عن وقارها فى خطبها، وقامت متدلّهة
والهة، فإذا هى تلتدم وتلطم، وتنوح مع النساء، ولم تعلم بدفن الرسول حتى
سمعت صوت المساحى من جوف الليل.

وقد أقامت بعده فى الحجرة المجاورة لحجرة قبره، فكانت تزوره كل يوم،
وتستمد من ذكره جلدأ على احتمال الحياة، ولم يخلف لها الرسول ثروة من المال
تفنى بعد حين، وإنما خلف لها وللعالم ميراثاً باقياً على الزمان ما بقيت الأرض
والسما.

ترك لهم كتاب الله وسنته هدى للناس ورحمة، وأورثهم هذا الإيمان الذى
أخرجهم من الظلمات إلى النور وجعل كلمة الله هى العليا.

ولبثت عائشة بعد الرسول مفزع القلوب فى الحنين إليه وكأنها بقية وجوده
ومعلمة الدين بعده، على نضرة العمر فيها ورزانة العقل والتفكير، وقد أودعها
النبى صحف القرآن وسنته وأحاديثه، فحفظتها وبلغتها حتى غدت مرجعاً
للرجال والنساء، فكان يأتيها رواة الحديث وفيه ما فيه من شرح وتشريع فتقوم
بالتحليل والتفصيل على أسد رأى وأصدق رواية، ولم تكن أم المؤمنين الراوية
الأولى للحديث والسنة فحسب، وإنما أحاط علمها بمشكلات التاريخ ورواية

الآداب والأنساب، ونفذت معرفتها وفطنتها إلى طب زمانها ومواقع النجوم عند العرب فألمت بها، ولما تعقدت السياسة بعد حرب الردة، كانت عائشة إلى ذلك ملاذ الشورى وصاحبة الرأي المسموع، فكان يجيئها صحابة الرسول وأولو الأمر منهم يستوضحونها ما غم عليهم من وجوه الرأي والسداد، حتى غدت مرجعاً لمن لا يركنون ليقين مما سمعوا حتى يبلغهم جوابها فتطمئن قلوبهم؛ وقد استدركت عائشة على ثقات العلماء وكبار الصحابة فهمهم لسنة أو حديث فاتهم أول الكلام عليه أو آخره، فتكشف عما التبس وغمض من الأحكام والروايات، وكان يرجع إليها أبوها الصديق وعمر بن الخطاب فيما هي أعلم به من حديث أو نسب، فوجدوا عندها ما يزيدهما طمأنينة في الحكم والرأي والاستنباط.

ومن دمشق كان يكتب إليها معاوية في خلافته الأموية مستفهماً أو مستعلماً عما استبهم على الفقهاء والرواة في التفسير والأخبار.

شهدت عائشة بوادر الفتنة أيام عثمان، إذ تبرم الناس بولاته وعماله الذين استخلصهم وآثرهم، فاتخذوها وسيطاً لدى الخليفة في عزل الولاة وردعهم عن الترف والتبذير.

ولما حوصر عثمان خرجت عائشة لتدفع عنه فتنة المغيرين والناقمين، وكانت معها شريكاتها صفية بنت حبي فنهتها أم سلمة، ونصحتها بكتاب كريم، فأجابت أم المؤمنين بأنها ما قامت إلا لتصلح ذات البين بين فشتين متنافرتين.

واتبعها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فلما رأت أتباع عثمان يأترون بأخيها محمد ليقتلوه ثار ثائرها، وآثرت هجر المدينة لكي تقيم في مكة بجوار البيت الحرام.

وأخذت الفتنة تطفئ وتحتدم، حتى قتل عثمان شهيداً، فغضبت عائشة لمصرعه، وانتصرف الناس عن قاتليه كأنهم لم يفعلوا شيئاً، فهبت أم المؤمنين تدعو الأبطال للشار للدم عثمان بكل ما أوتيت من بلاغة فى الخطابة فألبت الأحامس وألهبت حميتهم فخفوا إلى القتال تحت رايتها الخفاقة.

ولقد حملت عائشة عليا تبعة الفتنة فركبت جملها وقادت جندها إلى البصرة وكان الخصوم بالعراق.

فيا من رآها تحض الفرسان خلف الفرسان وتزجى الصفوف إثر الصفوف وهى فى هودجها الخافق بالدروع ونبال الأعداء منصبة عليه حتى قتل حولها الألوف، وقطعت أيدى الأبطال على خطام بغيرها!

ومنْ لأعين كان ترى هذا الجمل وهو يجرجر بصوته ويرغو الزيد على شذقيه؟ فلما قطعت قوائمه وسقط على الأرض هداراً مجرجراً، قفزت عائشة من بين الرماة والكماة وهم يقدونها بأرواحهم ويودون لو يسقط الجمل، فكسروا بقايا نصالهم وأصابوا بنبالهم جسوم الأعداء.

ولم تلبث اللبوة الشائرة، مهتاجة غاضبة إلى أن هدأت بعد الهزيمة منطوية على نفسها، فأوت إلى بيتها محزونة نادمة على دماء الأبرياء وأرواح الشهداء التى أزهرت فى وقعة الجمل، وطالما تمت الردى قبل تلك المعركة الفاتكة.

وكانت ثورة أم المؤمنين سبباً فى نقد المؤرخين، ولوم المتكلمين حتى قال ناس فى قديم الدهر وحديثه ما لعائشة وللسياسة؟

وكان قولهم مشفوعاً بالنقمة على النساء جميعاً، وفيهم كثير عد تصدى عائشة للقتال بدعاً منها وفتنة، لأنهم أضمروا لأسباب خاصة كل عداوة للمرأة واستهانة بكل ما يصدر عنها.

على أن تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، قد اشتمل على مواقف المرأة فى الحرب والسياسة ونصرة الحق، كان فيها الظفر والتوفيق، ولم يكن

يكره ذلك منها أو تعاب عليه وتؤاخذ به، ولو حللنا ما أحاط بعائشة من الدس والحق لوجدناها بريئة من كل تحيف وتعسف، فالتقصي لما لا يس تلك الحوادث الغاشمة يرى أن كتباً كانت تروح وتجيء بعضها باسم عثمان وبعضها باسم أم المؤمنين وهي منها براء، ولو أن جو السياسة كان صفواً خالصاً فقيض الظفر فيه لعائشة بحرب الجمل لكان لها شأن غير ذلك الشأن ولتبدل به كثير من معالم التاريخ الإسلامي، فإن عائشة قد برزت واختفى من حولها كثير من الدسائس غابت تبعاتهم في التاريخ، ولولا صراحة عائشة وشجاعتها لما ناءت وحدها بتلك التبعات التي فر منها أصحابها واستسروا في مطاوي الكتمان.



سلوا الشبيخة القانتة وهي محزونة في بيتها أو محرابها، عما خلفت وراء السبعين من عمرها! فقد عاشت بعد زوجها محمد زهاء خمسين عاماً معلمة لرواة الحديث والسنة، مفتية بما التبس على الفقهاء والعلماء، وليس هذا بمستكثر على من أحاطت علماً بأحكام الشريعة وقضائها، وحفظت حديث الرسول كما جاء في أوامره وأسبابه حتى قال عنها الرسول: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء».

سلوا عائشة بنت الصديق عما شهدت من كبريات الخطوب والحوادث منذ كانت صغيرة لعباً حتى فارقتها الرسول وهي لا تتجاوز العشرين عاماً.

إنها لن تجيبكم، فهي صامته إلى يوم الدين، تأخذها السكينة في جنب الرسول، ولكن يجيبكم تاريخها الحافل مكتوباً بأقلام الثقات من الباحثين والمؤرخين بأنها كانت راوية محمد وأعلم الرواة بكل ما اتصل بكتاب الله وسيرة الرسول فكانت بحق فخر المؤمنات وأم المؤمنين.

حفصة بنت عمر

(الخطابية)

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان،

ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»

من حديث النبي ﷺ في خطبته حفصة



أحب محمد أن يزداد أنصاره عدداً وإيماناً به ورسالته لتعلو كلمة الله
ويسود الحق والسلام، فتقرب إليه ذوى القربى وتزوج عائشة بنت صاحبه أبى
بكر الصديق ليشد عضده بأبيها ويستعين به على الأعداء والمناوئين.

وكان عمر بن الخطاب الذى أسلم بعد عتو عن أمر الله وثورة على أخته
فاطمة وزوجها سعيد لأنهما آمنا بمحمد واستجابا لدعوته حتى كانا سبباً فى
إسلامه وإذعانه للحق- كان سنداً قوياً للرسالة ودفع ما ائتمر بها الخصوم
والطواغيت، فاعتز محمد بعمر، وما أوتى من نخوة وبطولة فى فترة بدأت فيها
الهجرة والانطلاق بعد حصار واستخفاء.

وطابت نفس محمد بهذا التأييد الجديد من عمر، فركن لإيمانه ورأيه وهو
يجهر بتعاليمه ويشاوره فى أمره كما يشاور أبا بكر؛ ولكى يزداد طمأنينة
وارتباطاً بهذا النصر الكبير لم يستطع أن يكتف فى نفسه رغبته فى أن يكون
صهراً له كما كان لأبى بكر، فلما جاء عمر ذات يوم متبرماً بما كان من تحافى
صاحبيه أبى بكر وعثمان إذ عرض عليهما واحداً بعد الآخر أن يتزوج ابنته
حفصة فلقى منهما الإعراض والسكرت.

وحفصة الصبية الذكية التى فقدت زوجها وهى فى الثامنة عشرة فى
وقعة بدر محزونة لا تكفكف دمعها، فإن زوجها الصحابى الفدائى خنيس بن
حذافة السهمى كان فى عداد المهاجرين إلى الحبشة كصاحبه السكران زوج سودة
وقد ناضل فى «بدر» حتى أعياه النضال فقضى نحبه بعد عشرة زوجية لم تطل
شهورها، وكانت حفصة سعيدة بزواجها فتركها خنيس لحزنها العميق ولم يجد
عمر خروجاً لابنته حفصة من هذا الحزن الذى ملأ بيته كآبة إلا بتزويجها صديقاً
يعرف قدرها ويجبر خاطرها.

فلما أبدى لأبى بكر هذه الرغبة التزم الصمت والابتسام فراح إلى عثمان
وكان محزوناً لوفاة زوجته رقية بنت محمد عارضا عليه الزواج من بنته حفصة
فأجابه بتبرم:

- لا رغبة عندي في الزواج...

كان محمد وهو يستمع لكلام عمر يشعر بأن الرابطة التي يريد أن يوثقها من جديد أوشك أن يمسكها بيده فقال لعمر:

- يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان الذي أملك جوابه من هي خير من حفصة...

فتبسم عمر راضياً باشاً وقد أدرك ما يريد محمد وعاد من فوره إلى بيته يحمل إلى حفصة هذه البشري.

ولما علم أبو بكر بما دار بين الرسول وصاحبه عمر عاودته الذكرى فأحب أن يسمح ما علق بنفس عمر من جراء صمته يوم عرض عليه الزواج من بنته فقال له:

أرجو أن يكون قد زال ما بنفسك نحوى.. فإنك وجدت على من أجل بنتك، ولو لا أن رسول الله قد ذكرها فكتمت سره لما لقيت منى السكوت..

ولو علمت بأن عثمان ما يزال محزوناً على وفاة زوجته رقية بنت محمد لا يطمع في غير شقيقتهما أم كلثوم لما سألته زواجاً من حفصة.

ودخلت حفصة بيت الرسول زوجة ثالثة وما كان في هذا التعدد من ضير وعيب في ذلك الحين عند العرب، وكان عند محمد وسيلة لتوثيق الصحبة والقربى وشد العضد والأزر فيما كان بسبيله، وقد دأى الرسول بين الزوجات عادلاً في المعاملة والعشرة قدر ما استطاع قلبه وعقله، لكن عائشة التي تقبلت سودة بالطمأنينة دون غيره منها لم تستطع أن تكتم غيرتها من حفصة وهي مثلها شباباً ونسباً وفضلاً.

أما حفصة فقد سبق لأبيها عمر أن وصاها بأن لا تزاحم عائشة على قلب محمد، ومحمد يرضيه ما يرضيها، فلتعمل على اكتساب رضا نظيرتها التي

تناصيها نسباً وأدباً لتكون معها لا عليها، وحسبها أن صارت في عصمة الرسول ورعايته يتعهدا بعطفه ومودته. على ألا تتقدم من سبقتها إلى قلب محمد وتفوقت على الحداثة بعلمها وفطنتها.

وبذلت حفصة من الرصانة والتقوى ما أحلها محلاً كريماً لدى محمد، وكان أبوها يتفقددها ويرتقب سلوكها في بيت زوجها مع ضررتها إن صح أن تكون لها ضرة بالمعنى الحديث، وما كان لحفصة أن تضار في قرب عائشة وصحبتهما وإن كان يعتريها في سرها ما يعتري أمثالها من الغيرة المكظومة، فقد وطدت نفسها على معاناة ما يعينها بصمت ورزانة، وكانت تشهد تفتح عائشة في وعى الحياة وإدراك ما يغيب عنها أحياناً فتقر لها بينها وبين نفسها بحقها فيما سبقت إليه.

وبقيت حفصة حفيظة على توصية أبيها في استرضاء عائشة واكتساب ثقتها بالإيثار والتكرم، ولو جارت على نفسها بما يشبه الغضاضة خوفاً على الرسول نحوها وحسباناً لما قد تلقاه من أبيها، حتى رأت بعينها وجوه زوجات طارئات، دخلن بيت الرسول واحدة بعد أخرى فيهن الصبية الغريبة والكهلة العوان والأرملة الجميلة، وكانت أم سلمة أولى الوافدات الجديديات، ضاقت بها عائشة وهي تراها في عمر أمها وفي بقايا ملاحه وفتون هيجت غيرتها فراحت إلى حفصة تشكو ما أصابها وتستعين بها عليها خوفاً من أن تكون لها حظوة لدى الرسول.

وربما سولت لها نفسها الكيد لمن دمرت عليها بلامح وسامة لم تمحها السنون أو بأصالة متينة الوثاق والأعراق.

وارتدت حفصة إلى طبيعة الأنثى في غيرتها، فتحيزت إلى عائشة تسرى عن نفسها المكبوتة، وتسايروها فيما ترى نحو هؤلاء اللواتي اقتحمن منزل الرسول زوجات أليفات حيناً متنافرات أحياناً، وتبلغ بحفصة الصراحة أن تراجع

محمداً فى بعض الأمور فلا يؤذيها فى غيظها، حتى يصل النبأ إلى بيت عمر، فتخرج فيه زوجته على ما تعودت من التأدب والمودعة كلما رآته فى حدة طبعه أو عنفوان غضبه فيسألها:

- ما الذى غيرك حتى تطولت علىّ لا تأبهين لمرضاتى؟

فلم تستطع أن تخفى ما ترمى إليها من أخبار بنته فى بيت محمد قائلة له:

- عجباً لك يابن الخطاب، ما تريد أن أحاور أو أراجع، وإن ابنتك ما تتحرج من مراجعة الرسول حتى يخرج من عندها واجماً يكظم غضبه ولا يخفى...

فاهتاج عمر وهو يعنف زوجته، ويمضى بعنفه إلى بنته حفصة، فتعجب لقدمه غضبان وتخشى أن تبدأه بالسؤال فيقول لها:

- هل كان حقاً ما سمعت بأنك تراجعين الرسول حتى يغضب؟

فأجابت حفصة: والله إنا لنراجعه ولا ننكر...

فقال لها: أى بنية، لا يغرك ما تجددين من عائشة. فهى أقرب للرسول منك فلا تطاولى، ولولا أنى عززت عليه لكان نصيبك التسريح...

وأخذ عمر يتساءل عن أم سلمة وهى فى رصانة ليست ببنته، فحاورها وعاتبها لسكوتها عما يقع فى منزل الرسول، لكنها لم تطاوعه فيما أراد وردته عن تقحيم نفسه فيما لا يرضيه وإن كان يعنيه، فإن الرسول أولى بتأديب من لا ترتدع ولا تراعى أمرها، لكن هؤلاء الزوجات صبايا وكهلات، وقد أعزهن الله بأن كن أمهات المؤمنين لم يستطعن أن يتجردن من غيره الأنثى إذا مست بما يضيّمها وهاجتها مساءة من جنسها، وكانت حفصة وعائشة تتداولان الدسيسة ولا تكف إحداهما عن لزم التى يختصها الرسول بنظرة خاصة أو زورة طارئة،

حتى أنذر حفصة بتسريحها لولا أنه يعلم بأنها صوامة قوامة. وكانت امرأة صالحة وقد خافت حفصة من أبيها الذي توعداها من قبل بأن لا يكلمها إذا تناست ما وصاها به.

وشاع بعد حين أن نساء النبي يأتمرن به مضايقة وتحجافياً، والتماساً لنفقة تعذر عليه تدبيرها، حتى أنه لم يخرج ذات يوم من بيته للصلاة بالناس فتساءلوا عن السبب وكان أسبقهم إلى بيت محمد أبو بكر ثم عمر، دخلا ليتفقدوا الرسول فوجداه على غير عادته، ولم يكن مريضاً ولا مشغولاً، وإنما رأياه كالحارذ المعتزل، وزوجاته واجمات متحيرات فإنهن ألحنن في التماس النفقة والرسول لا يدخر عنهن شيئاً، فهدد أبو بكر بنته عائشة بالتزام الخير والصبر وأن لا تسأل الرسول ما ليس عنده.

وتوعد عمر بنته حفصة فأمسك برأسها وعنفها، وكأنه يهم بضربها ويخشى أن تكون هي سبباً في غضب الرسول، وأبى الرسول إلا أن يعامل زوجاته بالحزم وأن يهجرهن حتى يعدن إلى التوبة والصواب، وإلا كان جزاؤهن التسريح والطلاق.

واعتزل الرسول هؤلاء المؤتمرات به الناقمات الغيورات، لا يكلمهن ولا يدنو منهن، فشاع بين الناس نبأ هذه العزلة الطويلة، وأنها قد تكون عقوبة وقصاصاً. أو تكون طلاقاً فكانوا في همٍّ مقيم لتأبى النبي على نسائه وإشفاقهم من سوء المصير، ولم يستطع عمر بن الخطاب صبراً على هذا الأمر فمضى بشجاعته ونخوته إلى حيث اعتزل الرسول زوجاته، مستأذناً ملحاً في زيارته. فلما أذن له بالدخول رأى النبي مستلقياً على حصير متكئاً على وسادة حشوها من ليف، وسبق التحية دمع من الرجل المهيب الوقور فنهض الرسول وقال لعمر:

- ما يبكيك يا عمر؟

فأجابه بحسرة: لا يشق عليك أمر زوجاتك، فإذا كنت تريد تسريحهن فإن الله معك ونحن معك..

فقال الرسول: لم أطلقهن، وإنما هجرتهن شهراً.

فاطمأن عمر وحنا على الرسول يتحدث إليه بما خفف من أسفه، ثم مضى إلى المسجد ينقل البشرى إلى الناس فهللوا وكبروا وهتفوا بالطمأنينة والغبطة.

وعادت إلى نساء النبي نفوسهن الموزعة، وكادت تذهب حسرات وجا هن الزوج الكريم بتخير ما يعجبهن، فإذا كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فلهن التسريح، وإن أردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منهن أجراً عظيماً.

وبكت نساء النبي ندامة وتوبة، وعدن إليه راضيات تقيات، ساعيات إلى مودته ورضاه، ولعل التقارب الذي كان بين عائشة وحفصة مرده إلى أن كلا منهما كانت بنتاً لمقرب من صحابة الرسول تروى أحاديثه وتحفظها وتعلم أسبابها وما لا يسها ورافقها، وكانت حفصة برصانتها وتقواها مرجعاً لكثير من الصحابة في الحديث وسور القرآن، وقد لازمها أخوها عبدالله فتلقى عنها ما تلقت في بيت الرسول الذي كرمها، لانصرافها إلى العناية بتعاليمه مشاركة عائشة فيما روت وتأديت ولم تجد غضاضة بعد ندامتها في أن تلقى زوجة لنبيها جديدة وافدة هي زينب بنت خزيمة أرملة الشهيد عبدالله بن جحش أحد الفدائيين في «أحد»، وابن عمة الرسول.

تزوجها محمد كدأبه كلما عطف على بائسة هدتها المصيبة والعزلة وربطتها بالرسول وشائج القربى أو الصحبة، لكن زينب الخزيمية العامرية ماتت بعد زواجها بشمانية أشهر مشاركة لزوجات النبي باللقب الذي ألقاه عليهن هذا الزواج الرحيم وهو أم المؤمنين.

ولم تنعم زينب بهذا اللقب فحسب، وإنما كان لها لقب آخر هو أم المساكين فقد أجمعت الروايات على أنها عرفت بالحنان والحدب على هؤلاء المضعوفين المتعفين والمعوزين المحرومين فسميت أمهم ورضيت من دنياها بأن تكون من أزواج النبي ومن شملهن بعطفه وشرفه.

أما حفصة فقد عاشت بعدها وبعد الرسول مرعية الجانب، مرضية المكانة، تتبع تدوين السور والآيات وتنسيقها بعد جمعها من أفواه الحفظة الثقات ومن الصحف والرقاع التي جمعت فيها، وكان أبوها عمر يلج في جمعه خوف ضياعه، ولما عمل أبو بكر في خلافته الراشدة على حفظ القرآن مكتوباً عنده تخير حفصة من بين نساء محمد، ليكون عندها، فحفظته في صدرها وفكرها وأودعته أمانتها حتى كان عهد عثمان بن عفان، فإنه أخذ منها صحف القرآن ورقاعه وأمر بنقلها في عدة مصاحف على أن يرد الأصل إليها ويحرق ماعده، ثم أمر بإرسال النسخ إلى الأمصار والقبائل ليعولوا عليها وحدها.

ومن الجدير بالذكر أن حفصة الخطابية تعلمت الكتابة قبل زواجها بمحمد على يد معلمة من رهط أبيها تسمى الشفاء العدوية، ولما تزوجت حفصة شجعها الرسول على إتقان القراءة والكتابة فكانت له تلميذة ثانية بعد عائشة، وقد روت هذا الخبر مصادر المؤرخين ومنها فتوح البلدان للبلاذري.

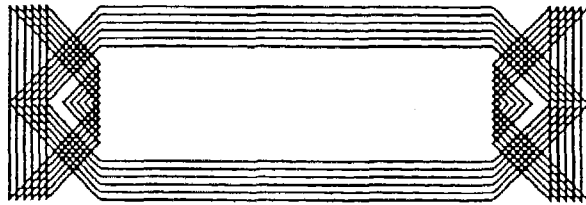
ولما احتدمت الفتنة من جراء الفجيعة بقتل عثمان أرادت عائشة أن تمضي إلى البصرة للتحريض على المطالبة بدم الخليفة الشهيد، وشاءت حفصة أن تصاحبها وتؤيدها لولا أخوها عبدالله الذي زجر أخته وصدها عن مشاركة عائشة في الحز على الثأر والانتقام.

وبقيت حفصة على ولائها لأخيها وإيثاره بعنايتها ووصت له بكل ما ورثت من أبيها، وعمرت إلى الستين، وكانت وفاتها بالمدينة فصري عليها واليها مروان بن الحكم من قبل معاوية، وقد نظم اسمها في عقد الخالدين والخاليدات.

أم سلمة (هجرة المخزومية)

«رضيت بك يا أم سلمة، وسأتعاهد أولادك
فأرعاهم بمحبتى وعونى، أما غيرتك
فيذهبها الله»

معنى ما قاله النبى ﷺ لأم سلمة فى خطبتها



كأن القوم تنادوا بلهفة وحنين، فقد أقبل بعضهم على بعض مشفقين مشوقين، فى عشية من عشايا الحجاز، لافحة بريح كأنها بقايا اللهب من ذلك النهار.

وما ألقى الليل على مكة ظلامه وهدوءه، حتى سرى هؤلاء الكرام إلى دار الندوة، يجرون العباءات وراءهم، ويخفون تحتها بالأردان المعطرات، إنهم ليمرون بمنعرجات خلف البيوت وكأنهم أشباح خافقة فى العتمة.

أخذ هؤلاء المتنادون مجالسهم، حيث ينبغى لهم أن يتدبروا الرأى ويتبادلوا الحديث عن هذا الرسول الذى تصدى لأمر تغلى فيه مكة وتفور، فأسر الكلام فى الندى بعض، وجهر به بعض، وكان بين المشفقين على محمد وصحبه نفر من المؤمنين، تذكروا هجرة الحبشة وما احتمل أهلها من قلق البال وعنت الاغتراب، فذكروا أبا سلمة عبدالله بن عبدالأسد المخزومى الصحابى، وكيف نأى عن الحمى، ومعه زوجته التقية هند بنت أبى أمية، إذ كانا من السابقين الأولين إلى الهجرة الثانية، وكاثروا بهذه الزوجة المؤمنة الرضية التى بذت النساء فى ذلك المنتأى، فاحتملت السفر عبر البحار وهى حامل، وتحشمت حرات هاتيك الديار على ما منحها الله من عذوبة الطبع وخفة اللحم وروعة الجمال، ولعلمهم قالوا فيما تطارحوا بشأنها : امرأة بألف من النسوة، قد أعدتها الأقدار ليوم عصيب، فما مثلها فى العشيرة أم رؤوم، ولا نديدة لها فى جنسها حكمة وعزماً، وطوقت أحاديث القوم بخواطر النسوة اللاتى كن ينفسن على هند أم سلمة وسامتها ونجابتها، وإيثارها زوجها ابن عبدالأسد بطاعتها ومودتها، فما عرفته يوماً جار عليها ولا أدركن يوماً تجنت فيه أو نشزت، وأنصف القوم فرصفوها بمزاياها وذكروا أباها زاد الركب، أبا أمية المخزومى الذى كان يطعم الركب إذا سار فيهم. فلا يحمل أحد منهم قليلاً أو كثيراً، وأما أمها فعاتكة الكنانية من منبت أصيل وبيت كريم.

ولا يكاد ينفض السامرون فى قطع من الليل حتى يأووا إلى بيوتهم. وقد يعودون لأحاديثهم فى لياليهم القابلة، فلما كانت هجرة الرسول إلى المدينة شاع خبر هذه الهجرة وخاض فيها الناس مدهوشين، إذ تسامعوا أن محمداً وصاحبه قد انطلقا تحت الظلام فى الليلة البارحة وهم يعلمون أن يشرب وما جاورها لا يبلغه الراحل بمسيرة يوم، فلا بد أن يبيتا بمفزع فى بعض الشعاب، فكانوا يدعون الله أن يسلم محمداً وصاحبه من الأذى ويحميها من كيد الأعداء.

ويلحق بمحمد أبو سلمة مهاجراً إلى المدينة وتبقى أم سلمة واجمة حيرى، فقد صدها قومها عن الهجرة، وانتزعوا منها ولدها سلمة لكى يحولوا دون بغيتها، فكانوا يتخاطفونه بينهم ليزيدوا فى غيظها حتى خلعوا يده، فكانت تخرج إليهم والهة مدلهة، ويضحكون منها كيداً ومكراً، ولما اشتد خطبها رق لها شافع من قومها حذب عليها وشفع فيها حتى ردوا لها وليدها سلمة، فكان روحها ارتدت إليها.

وتتبع الليالى السود بعضها بعضاً، فتضيق أم سلمة بحياتها فى مكة بين قوم ساموها العذاب وساقوها المنكر، ويهيج حنينها إلى الهجرة لحاقاً بالرسول وزوجها، وترتقب سانحة للسفر حتى إذا اغتنمتها، رحلت جملها وشدت عليه مزاد الماء، فكانت البيداء تطوى عنها ويدنو بعيداها، إلى أن بلغت دار الأنصار، فتلقاها أبو سلمة كأنها برد على كبده، وعلم بمقدمها الرسول فأكرمها.

وإن أيام الهجرة لشاقة مريرة، لولا كرم الأوس وحمية الخزرج، فقد هدهدوا آلام المهاجرين ومسحوا دموعهم بالبر والمواساة، فنصروهم وآزروهم، وأم سلمة وزوجها إلغان فى دارهما النازحة كما كانا فى مكة بين أولادهما، ولم يزل ذلك شأنهما حتى طوى الموت أبا سلمة بعد ثلاث سنوات من هجرة الرسول إلى المدينة، وقد وصاها قبل موته أن تبتغى الزوج الصالح بعده فحزنت عليه وفزعت إلى الله تدعو أن يؤجرها فى مصيبتها.

وما زالت وصية أبى سلمة ملء سمعها وقلبها ، وقد شاعت هذه الرخصة فى قومها فتساءلوا :

- من ذا يكون الرجل الصالح ؟

وما ابتغت هند شيئاً بعد أبى سلمة ، فعكفت على بيتها ، واستغرقت فى سكب حنانها على بنات يتامى وولد نجيب ، كان قرة عين لها وموضع أمل لها ولأخواته الثلاث .

وأكملت أم سلمة عدتها ، وكأن قوماً كانوا يعدون أيامها لعل أحدهم يكون المحظوظ بالزوج الصالح .

وخطر لأبى بكر أن يبنى بأم سلمة ، ولكنها أحسنت رده ، ويادر عمر بعده فأبى خطبته وامتنعت عليه ، ثم جاءها الرسول وقد ألقى على وجهها خمارها ، فلما خطبها اعتذرت بأن السن أفلتت منها ، وأنها أم بنات وعنيفة الغيرة ، فقال لها الرسول :

- رضيت بك يا أم سلمة ، وسأتعاهد أولادك فأرعاهم بمحبتى وعونى ، وأما غيرتك فيذهبها الله ..

وكان محمد بعد ذلك الحوار هو الزوج الصالح لأم سلمة ، فعاشرته عشرة الزوجة الأمينة الودود ، وكانت له مبعث الأُنس والطمانينة والعزاء فى الغزوات والملمات ، فقد رافقته فى بعض مغازيه وسددت له الرأى والمعونة وواسته فى كل خطب ، فلما خرج بصحبة المهاجرين والأنصار يريد البيت الحرام زائراً ومعتماً ، تصدت له قريش لتصدّه عن دخول مكة دون رضاها ، فتحالف وصحبه وشددوا المواثيق لزيارة البيت العتيق ، ولو على رءوس الرماح ، فخرجت إليهم قريش مستكشفة مستطلعة ، فلما أحست بأسهم توسلت إلى الرسول بأن يعودوا إلى المدينة خشية أن تسفك الدماء فى الأرض المقدسة ، على أن يؤجلوا هذه الزيارة

إلى العام التالى، فيفسحوا لهم طريق الحج فرضى الرسول بذلك حقناً للدماء، وحفاظاً على البيت الحرام، وقد طلب إلى أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا أضياعهم تحللاً من الإحرام، فشق على المسلمين أن يردوا عن اعتماهم بعد أن تعاقدوا على الموت فى سبيل الله، وأبوا أن يذعنوا لكلام الرسول، فدخل على زوجته أم سلمة محزوناً مغيضاً، وشكا إليها غدر أصحابه وعنادهم، فهزنت عليه الأمر والتمست له مخرجاً من هذا المأزق بأن يلقاهم صامتاً حالقاً، وأن ينحر هادئاً كأن لم ينكر من تخرجهم وتمردهم شيئاً، ولم يكذب يفعل ما أشارت به أم سلمة حتى ثاب المؤمنون إلى رشدهم فارتد إليهم هذؤهم واستجابوا له صامتين، فلم يبق مسلم إلا نحر مكانه وحلق افتداءً بالرسول.

ودارت الأيام ففتح النبى مكة، وأتم الله نعمته على المسلمين فأكمل دينهم وأثابهم فتحاً قريباً ونصراً عزيزاً، ولما مات الرسول عن أم سلمة بكته طويلاً وعاشت على ذكره، وكانت مثل خديجة فى نصر الله وتأيد رسوله، حكيمة رشيدة ذات رأى وحلم وأناة، ولم تكن مثل عائشة فى حماسيتها وغيرتها، ولئن اعترفت بهذه الغيرة للرسول وحذرت منها حين طلبها للزواج، فما عاين محمد من غيرتها مثل ما عاين من عائشة، ولم تفارق أم سلمة حكمتها وأصالة رأيها فى زحام الوقيعه واشتداد الخطوب، فقد راعها أن عائشة تستنفر أحامس المؤمنين لقتال على بن أبى طالب ثاراً للخليفة الشهيد عثمان بن عفان، فكتبت إليها لومة معنفة فأجابتها عائشة بأنها تصلح بين فئتين متشاجرتين «وقضى إلى ما لا غنى عن الازدياد منه، وإن قعدت فعن غير حرج».

فلم تنفع لومة أم سلمة وإن توقعت ما جرى به القضاء فى وقعة الجمل فغشيتها الأحزان على أرواح تعجلت الفناء استجابة لرأى أم المؤمنين عائشة، التى شجاها ما شجا أم سلمة من قتال أطلع الفتى أزاهير حقد وكيد، وأبقى الأضغان والتحيز يتوارثهما جيل من جيل وتؤلف بموضوع الفتى أشتات الكتب منافحة أو مهادنة، وكان الأمر موكول إليها بالتأييد أو التفتيد.

وامتد العمر بأم سلمة فعمرت، لكنها ما أهترت على كبرتها ولا أفندت،
ولا نديها العقل عن رزانتها، وليت شعري هل اشتعل رأسها شيباً من تزاحم
السنين أو من هول ما شهدت من خطوب المسلمين في حروب الشام والعراق،
وفيما انكشف عنه خلاف الخلفاء والولاة تعالياً وطمعاً؟.

وكما شهدت أم سلمة مصارع نفر كثير، عرفت فيهم الشهامة والمرورة،
فإنها انطوت على نفسها في أمر طائفة عرفت فيهم العنجهية والخيلاء ممن
غرثهم الحياة الدنيا فهان عليهم هدر الدماء.

وانتهت حياتها في عهد يزيد بن معاوية الذي لم يتورع عن الفتك
بأحباب الرسول وآل بيته فأطبقت عينيها وهما تشهدان ظلم الإنسان لأخيه
الإنسان.



زينب بنت جحش (الأسدية)

«ستلحق بي أطولكن يداً»

من حديث النبي ﷺ يذكر كرم زينب بنت جحش



ما كاد زيد بن حارثة يدخل بيته ذات مساء، حتى تلقت زوجته زينب الأسدية بوجه عابس وأنف شامخ، فتكلف زيد الابتسام وأخذ يتودد إليها ما استطاع، فصدته عنها بعنف وصلف، وأبت أن تصغي لكلامه، فعجب لأمر هذه القرشية التي استضعفته وتنكرت له زعماً منها بأن زيداً دونها نسباً ومقاماً.

كان زيد قبل أن يقفل تحت العشية إلى بيته عند نبيه وأبيه بالتبني محمد بن عبد الله يستمع لحديثه، ويلقى صحابته بالمؤانسة والبشاشة، فلما دخل داره تجهمت له زينب كعادتها، فحاسنها ولاينها، وسعى بين يديها بجسم صاغر مخذول، ونفس مكفوفة أبيية، مكبوتة الحرية؛ لأنها احتملت الخزي والهوان ورضيت بمصيرها في سبيل هذا الرجل الذي ملأ مكة فضله، وسارت رسالته في أحياء العرب تشرع للمؤمنين شرعة الحق والإخاء والعدل.

وتقدم زيد في خدمة زينب، فما رقت له ولا لان كلامها، فجاهد نفسه وعالجها بالمصابرة، محتملاً صلف زينب طاعة للرسول الذي أشهد الناس أنه اتخذ زيداً ولداً يرثه ويورثه، فكان زيد يرى لمحمد يداً عليه، وقد طوقت عنقه بشرف النبوة والأبوة، وبالنزوة الحسنة التي آثرها له زوجة لحكمة أرادها، فصبر على نشوزها وتجايفها، وأخفى بين حناياه لوعة ما يلقي من إغراضها، ولكم قضى زيد شطراً من الليل مثل ليلته هذه يذكر دمع أبيه وهو يفارقه مفضلاً أن يبقى مع هذا الرجل الذي رأى منه شيئاً. ثم يتمنى أن يطلع عليه صباح يكون أحسن من مسائه، فإذا انجباب ليله وأسفر صبحه بدت له زينب تحت شروق الشمس، متوعدة المزاج كالحلة الطلعة من عبوس مازال يبدو جميلاً في امتعاضه وانقباضه، لأن الوجه الذي يحتويه قد منحه الله فتوناً وسكب عليه السحر الحلال فغلب جماله على كآبته.

وإن زيداً ليتلطف في مصافاتها، ولا يكف عن مؤانستها، فيهم ذات مساء ينقل ما سمع في مجلس الرسول فتتوسم سواده وتنبو بنظرها عن أنفه الأفطس فتقول له:

- دعنى من لغوك وأرحنى من وجهك، فإنى ضيقة بحياتى. والله ما
انبسطت لك نفسى منذ أكرهت على الزواج منك.

فلم يثر زيد فى وجهها، وإنما تماسك لزهوها وعتوها، فأقام بين يديها
يصطنع الحلم والوقار، فرفعت إليه زينب وجهاً ينضح بغیظها، وقالت:

- أهلى فى القمة من قومى، فإن أمى أميمة بنت عبدالمطلب وخالى حمزة
أسد الله، ومحمد بن خالى عبد الله، وإنه لظالمى فقد زوجنى بك كرهاً وأنت
مولاه، ففوت على الفتیان الطوال من قریش وهاشم.

وكان زيد بن حارثة قد سرت فى طباعه سجايا محمد من طول مرافقته له
وقيامه بخدمته، فكظم غیظه وأمسك عليه الحلم صبره، وانفتحت شفتاه عن
كلمات رقيقة مشفقة، تبعث الحنان فى أقسى القلوب، فقال:

- كفى يازينب، هونى عليك وخففى حدتك.. فما أنا مولى رقيق لمحمد
ابن عبد الله، بالرغم من رضای بخدمته وإيثارى إياه على أهلى، ولئن جار
الدهر على فأسمعنى منك ما أكره، فإنى متقبل هذا منك إذا سمعت حديثى.

فأنصتت إليه زينب فاترة متكلفة، وقد هوت نفسها إلى قرارة ضميرها
فسرت فى مشاعرها رقة لا تكاد تبين، ويان على وجه زينب جزع عميق فقال:
اسمعى يازينب..

كان الليل دامساً، وكنت وأمى سعدى نزمع الرحيل من غدنا لنزور
أخوالى فى منازل طيئ بين الجبلين أجاً وسلمى، وكان أبى حارثة بن شراحيل
سيد بنى كلب يخشى فراقنا، فلما نرحنا عن الديار شق عليه هذا النزوح وشغل
بأله طول غيبتنا فكان يتلهى عن قلقه وضيقه ببسط الطعام للمساكين
والضيغان، ففى ذات ليلة أوقد ناره وعقر ناقة له ونحر جزوراً، فأقبل عليه
السائل والمحروم، ولاحت من عنده على مشارف الحمى نار موقدة، قصد إليها
جماعة من الشذاذ والصعاليك، إذ عرفوا أنها لضيغان الليل، فأموا قرانا،
ونعموا بكرم أبى حارثة ثم انقلبوا مع الفجر فى طريقهم، ومرت بضعة أيام فإذا

نبأ يتلقاه حارثة مروعاً فزعاً، فقد علم أن نفرأ من الصعانيك أغاروا على أطراف طيئ حيث كنت وأمى سعدى ضيفين، فاستلبوا إبلا وسبوا فتية ومالا، وكنا فى السبى فسحبونا عرض البيداء، مبعدين عمن يقتفى آثارهم بعد نهيبهم هذا، فلما بلغوا مأمتهم جلسوا يتحدثون بكرم الرجل الذى أطعمهم وأكرمهم منذ ليال، فعرفت أنه أبى ولما انتسبت لهم حسبونى كاذباً فضرىونى، وانطلقوا بنا إلى حيث ألقوا رجالهم، ثم جاء بى خاطفى زائراً من مكة فى موسم عكاظ، فاشتترانى منه حكيم بن حزام بن خويلد لعنته خديجة، ولما تزوجت الرسول وهبتنى له فقامت على خدمته وأمنت برسالته، وصبرت على ما صبر من أذى الكافرين، وانتهى خبرى إلى أهلى، فسارعوا إلى الرسول بالفداء، ليعودوا بى إلى حارثة وسعدى فأبيت العودة معهم وبعثت إلى أبوى وأهلى بشعر حزين قلت فيه إنى قطين البيت عند المشاعر، ورجوت أن يكفوا عن الوجد الذى هدهم فأبنى بحمد الله فى خير أسرة، ولكن الشوق خامر حارثة وهزه الحنين إلى فجاء على هرمه وكبرته مستغيثاً بمحمد، ملحاً فى أن يردنى إليه على أن يرفع له فى الفداء، فخيرنى الرسول بغير فداء ولاعطاء، وقلت لهم:

- إنى رأيت من محمد شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً..

فلما سمع الرسول قولى أخرجنى إلى الحجر الأسود وقال:

- اشهدوا يا قوم أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه..

وكان محمد منى بمكان أبى وأمى، ثم آخى بين عمه حمزة وبينى، أفيكون مولى رقيقاً من كانت هذه سيرته أيتها الهاشمية العصماء؟

وكانت زينب تستمع له كالحردة الغضبي، فلما استرسل فى حديثه كانت تنصت له فى ثقل ونعاس، ثم أطبقت جفونها على أن زيدا مولى من الموالى، وأن حظها فى الحياة أن تكون زوجاً لخدام الرسول الذى أحب أن يجبر خاطر مولاه فدعاه بابنه حناناً وبراً..

ونامت زينب عصية القلب والدمع. وفى طويتها أن تعيد شكاتها إلى محمد لعله يقضى فيها قضاءه..

ولم تغمض جفون زيد، فباتت عالقة بالنجوم تعدها على عادة العرب. إذا أضناها الأرق فتكون لهم صفحة السماء سلوى بنورها وشهبها. وتلوح لهم نجومها بالعزاء.

لقد مر بخاطر زيد ماضيه الذى نفذه لزینب وكشف عنه فلم يحرك فيها عاطفة، ولم يستطع هذا الماضى الناصع أن يفتح عينيهما وقلبهما، فكان زيد كمن وقف على حرف الهاوية فلا هو يستطيع خلاصاً، ولا رجلاه تنزلقان به فتتردى ويستريح، إذ كان يحب زينب ويعلل نفسه بمياسرة تكون منها بعد فرك ونشوز، وقد طاف بباله إعراضها عنه واستكبارها، ورنّت فى سمعه مرة أخرى كلمتها العاتية النابية التى خاطبت بها محمداً يوم خطبها له:

- لا أرضاه لنفسى..

فوجم زيد لهذا الخاطر، وأحس فى نفسه شعور النعمة والهوان، ومالبت أن تبسم بقناعة ووداعة حين ذكر جواب الرسول لزینب:

- ولكنى رضيته لك..

وتجاوبت فى قلبه الآية الكريمة التى نزلت بهذا الشأن «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً».

وأقبلت ضحوة النهار فأخذ زيد سمته إلى مجلس الرسول فقرأ محمد فى وجهه كدرة كان يراها كل يوم ويحس أن زيدا يكاتمها إبقاء على رضا، فأخذ الرسول يسأله عن أمره حتى شكا إليه بشه وجواه، فقد أدرك محمد أن زيدا يضيّق بهم، فأحب أن يسرى عنه ويفرج كربه بإيناسه ومواساته.

كانت حياة زيد مع زينب بنت جحش مثل موج البحر، وكانت نفساهما مثل الشاطئ يطحمه مد البحر ثم يرتد عنه جزره فإذا اشتكى زيد وبكى لعجزه عن أن يبلغ رضى زينب كانت زينب تستكين حينا وتذعن لحكم القضاء ويحملها محتدها النبيل وخلقها الكريم على الرضى بالمكتوب ولا يلبث هدوؤها

أن ينقلب بعد حين ثورة ناقمة، فتستعلى على زيد وتشكوه إلى سيده وأبيه بالتبني محمد بن عبدالله فيرد عليها حلمها ويشفق أن تتجاوز حدها فتؤذي زيدا بعنتها وزهوها.

ومضى زيد في دفعها عن غلوها في هذه الخيلاء، فما ازدادت إلا انصرافاً عنه، وموجدة على نفسها، وبجاهده الرسول على أن يسك عليها ويتقى الله فيها، حتى أسرف زيد على نفسه واستيأس من لين زينب، وزينب قد تبرمت بهذه الحياة ولم يجدها صبر ولا نصيحة، فألحت في تسريحها، واستجاب لها زيد كرها ورغماً، ولا يكاد زيد يرسل كلمة الطلاق كما يرسل الصياد الغزال فينطلق في البراري، حتى تنفلت زينب من رباطها وتمضى لوجهها، فيتلقاها النبي ويحى بها إلى بستانه محتملاً أذى قومه بألسنتهم، لأمر قضاءه الله وأراده الرسول، فقد نفى عن زينب ما وهمت في مس كرامتها وألغى حكماً عند قومه كان يحرم على المرء الزواج من زوجة ربيبه بعد موت أو طلاق.

وخاض الناس في الحديث عن زينب وزواج محمد بها، فقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض إن محمداً تزوج امرأة حبه وربيبه زيد، بل تزوج امرأة ابنه.

وما كان زواج الرسول إلا بأمر الله. لتبطل بدعة التبني عند العرب، فقد كان من عاداتهم أن يتخذوا أدعياءهم كأبنائهم، يلصقونهم بأنسابهم. ويرثونهم ويورثونهم كما كان يفعل الرومان، فشاء الله لنبيه أن يتزوج زينب لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم. إذا كان نصيبهم الطلاق، وقد أبدى الله ما أخفى محمد في نفسه خشية الناس، فنزلت الآيات البينات التي اطمأنت بها القلوب ويرث من آثامها الظنون، وأنصفت زيدا في عتبي الرسول.

عرف زيد بن حارثة محمداً قبل نبوته وعاشره في بيته وبين الناس فوجد من سماحة خلقه وعدل معاملته ما جعله يفضل على أبويه وأهله، ولولا إشار محمد إياه وبره به واتخاذَه ولداً لما أثر زيد حياة الرقيق على حياة الحر الطليق،

فكان يطيع محمداً فى كل ما يأمره به حتى أعياه أمر زينب، ففتفادى عنت زينب بطلاقها كارهاً راغماً.

وحين انحجاب عن زيد ذلك الظلام الذى سد آفاق عيشه أحس انطلاقاً من أغلال الزوجة المتأبية، ولم يكد ينعم براحته وحرته حتى استحالت نعماء إلى هم دفين، وأسف على تفريط، ولكن الإيمان ملأ قلبه واحتل الدين عقله وحسه. فغلبه كل هذا على أمره وشغله عن دنياه وآخرته.

ولم يعكر هذا المكروه صفو صحبته للرسول، فقد احتمله زيد راضياً بقضاء الله خالصاً لنبيه الذى أقام على حبه وإيثاره فاختره للسرايا، واستعمله على المدينة كلما خرج لمغازيه، وقد زوجه أم أيمن حاضنته وجارته التى ورثها عن أبيه وأعتقها حين تزوج خديجة بنت خويلد، وكان يدعوها الرسول أماء، ويقول عنها إنها بقية أهل بيته. ومما حبيبها إلى زيد، وقربها إلى قلبه أن محمداً قال: من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن، وقد أنجبت لزيد أسامة فنسى فى ولده ما عانى فى ماضيه، وكان النبى يقرنه فى الحب والدلال بسبطه الحسن بن الزهراء، ويتعاهده بالبر والحنان.

ومات زيد شهيداً فى وقعة مؤتة موعوداً بالجنة، وبكاه الرسول طويلاً، واستغفر له كثيراً وقد ذكر جهاده وبطولته فى «أحد» وفى «بدر» وما أبلى فى الدين وما احتمل فى حياته وغرته من خطوب.

وعاشت زينب بعد زيد فى نعمى وعافية، فقد تولى الله زواجها من رسوله الكريم، فصامت شهرين شكراً لله الذى أعزها وأنقذها على وهمها من شعور الضعة والهوان؛ وغدت محسودة فى قريش على هذا الزواج، حسدتها كثيرات، فما استراحت من لغوهن وغيرتهن قبل زواجها بالرسول ويعهده.

وأبدل الله قلب زينب الذى لم تملكه فى بر زيد وحبه ورحمته، فطابت نفسها عند الرسول وفاض قلبها بالبر والحنان، فصنعت المعروف وبذلت الصدقات وكانت غوث اللهيء وعون الضعيف، تكسو وتطعم، وتكرم وترحم، ويذيع لها صيت فى السماحة والندى، فقد جعلت تغزل الصوف وتصنع الكساء ثم تبيعه

لتبر بثمانه الفقراء، فكانت سبابة إلى ما تفعله اليوم بعض الكرائم الباررات إذ يعددن أسواقاً خيرية يبعن فيها ما تجود به مكارمهن من طرف وأشغال يدوية لبر المساكين في ثمنها.

كانت زينب الأسدية صوامة قوامة بذكر الله. ومن يدري لعلها صنعت المعروف وبرت المعوزين تكفيراً عما تقدم من ذنبيها في حياة زوجها قبل الرسول، وما عرف عن زينب غير نشوزها على زيد، فقد كانت تكره الدس والفتنة وتستعيذ بالله من شر المفسدين والحاسدين، ولما سألها الرسول عن حديث الإفك، وما انتهى إليها من أخبار قالت:

- والله ما علمت عن عائشة إلا خيراً..

وكانت زينب تستطيع أن تدس في هذه النهضة ما تشفى به الضرة الغيري التي أضنى قلبها مرض الكيد والحقد، ولكنها ما قالت إلا خيراً ولا شهدت إلا صدقاً.

ومات الرسول عن زينب وروحه متشوقة إليها، تتمنى أن تلحق به إلى قبره، وقد قال يوماً لنسائه وكن جميعاً يتلفن على لقائه حياً وميتاً:

- ستلحق بي أطولكن بدأ.

فالتصت أمهات المومنين تأويلاً لقول الرسول، وكانت كل منهن تتمنى أن تكون ذات اليد الطولى.

ولم يكن طول اليد الذي عناء محمد وأرادته إلا السماحة والندى والمعروف، وكان كل هذا تطوله يد زينب.

وقد توفيت في خلافة عمر الذي كان يتفقدها ويكرمها ويرسل إليها حصتها من المال فتمنحه المعوزين من أهلها وجيرانها حتى أنها أعدت كفنها قبل وفاتها فوصت بأن لا يضيفوا إليه غيره، وإذا جاءهم عمر بن الخطاب بكفن آخر فليكن إحساناً لغيرها وصدقة عن روحها.

جويرية بنت الحارث (الخزاعية)

«سارينا أسيرة كانت خيرا على أهلها من
بوة، من أجلها عذا كل الأسرى والسبايا
أحرارا»



كانت منازل بنى المصطلق الذين عادوا النبي وصحبه ظلماً وكيداً غير نائية ولا منحرفة عن المدينة، يعيش فيها نفر من خزاعة الذين تأبوا على الرسالة والرسول، فلما حل محمد فى المدينة ظافراً ونقض اليهود بعد شهور حلفهم وميثاقهم قضى وعى المسلمين وجهادهم على كيد الغادرين، وأخذ محمد يرسل الجيوش لنضال المناوئين الذين خالفوه طوعاً أو خالفوه كرهاً وعدواناً، فهال الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق انتصار النبي ودعوته. فراح إلى القبائل يدعوها لقتال محمد ودس الفتنة من أجله، فإن رسالته حققت نصراً كبيراً فى مدة قصيرة.

ولما علم محمد بهذا التحريض الجديد سارع بجيشه إلى حشود بنى المصطلق قبل أن يعد الأعداء عدتهم بالغدر والمكيدة، فلم يطل القتال بين الفريقين طويلاً إذ انهزم بنو المصطلق وخسروا المعركة فغنى المجاهدون الظافرون متاعاً وماشية وسباباً وأسرى، وكانت منهم برة بنت الحارث كبير الأعداء من بنى المصطلق.

وبرة هذه كانت جميلة فى ريعان الشباب ونضرة الملامح تزوجها ابن عمها مساعف بن صفوان الذى قتل فى هذه الواقعة السريعة فانضمت إلى السبايا اللاتى كن مع الأسرى غنائم، وقد حظ ركب الرسول للراحة والاستسقاء بجوار ماء المريسيع، وهب قبيل الفجر ليدخل المدينة مع النهار.

ولما أنزل هودج عائشة أم المؤمنين لم تكن فيه، وكان دورها فى مصاحبة زوجها، فاشتد قلق محمد وشغله هذا القلق عن النظر فى تقسيم الغنائم. وأخذ يسأل عنها حتى رآها مقبلة على جمل صفوان السلمى، وتحير الرسول فى أمر تأخرها فقالت:

- غادرت المعسكر إلى بعيد لقضاء حاجة لى، وهناك تفقدت عقدا كان فى عنقى، وقد نسيت نفسى وأنا أبحث عنه، وكنت وحدى فلما عدت إلى

المعسكر لم أجد أحداً ففهمت أنهم ارتحلوا وحملوا اليهودج دون أن يدركوا أنى لم أكن فيه لخفة جسمى فوقفت أرتقب رجعة منهم للبحث عنى حتى مر صفوان ابن المعطل السلمى راكباً جملة فطلبت إليه أن ينقلنى إلى المدينة، فنزل عن الجمل وحملنى عليه، وكان بعد ارتحال الجيش ينتظر الشروق ليجمع ما قد يكون نسيه أو وقع فى الظلام.

ولما وصلت عائشة إلى بيت الرسول ارتدت إليه الطمأنينة بعودتها وكان مشغول البال بتأخرها وبما نجم من خلاف على السقاية عند آبار المريسيع حتى ردد رأس المنافقين عبد الله بن أبى كدمات نابية جافية بحق المجاهدين كادت تؤدى إلى الفتنة بعد المعركة لولا أن سارع ركب الرسول بالانفلات والرحيل عن منازل بنى المصطلق.

وعاد الأنس والبشر لمنزل محمد بعودة عائشة، وجلس يستريح ويفكر فيما مضى وفيما هو آت، وعائشة بين يديه تسعى إلى خدمته ومرضاته فلما طرق بابها وفتح عن سيدة تستأذن فى الدخول للقاء الرسول رأتها عائشة فعجبت لشأنها ووجمت لشكلها إذ شهدت صبية وسيمة كانت من سبايا بنى المصطلق وقد أرادت أن تعرض مسألتها على النبى وتلمس عونهُ ومروءته، فلم تستطع عائشة أن تردّها، بل دخلت على محمد معها. وقالت الزائرة:

- يا رسول الله، أنا برة بنت الحارث بن أبى ضرار، سيد قوم بنى المصطلق. وقد أصابنى من البلاء ما زاد فى همى إذ قتل ابن عمى ووقعت فى السبايا بسهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسى، ولكن ثابتاً غلا فى الفدية والعتاق فرأيت أن ألجأ إليك فى محنتى مستعينة بك على أمرى.

فعاد الرسول بخاطره إلى أبى برة الحارث بن أبى ضرار زعيم الكافرين المكابرين فشق عليه أن تهان بنت عزيز قوم ذلت بسببها وبعدها عن أهلها، ولم يطل به التصور والهاجس فقد خطر له أن يعصمها من الهوان والتهديد. ويجعل

منها وسيلة للتخفيف عما أصاب قومها لعلهم يعودون إلى الحق والصواب فقال
الرسول لبرة :

- هل لك فى خير مما ذكرت؟

فأجابت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أفتديك وأتزوجك!

فأشرق وجه لبرة وضحكت عيناها، ورضيت بأن يمنحها الرسول حريتها وأن
تكون من أمهات المؤمنين بعد إسلامها.

وتسمع المؤمنون بهذا النبأ وعلمت زوجاتهم بأن النبى قد خطب لبرة
وأعتقها صوناً لكرامتها وتقرباً لقومها، فافتدى به الرجال فى تسريح الأسرى
والسبايا أحراراً قائلين:

- هؤلاء أصهار محمد وليسوا من الأرقاء والإماء.

ويبدو أن الرسول لم يحب اسم لبرة فسماها جويرية كما سمي زوجته لبرة
بنت الحارث الهلالى ميمونة، وانضمت بنت الحارث إلى نساء النبى معززة
مكرمة، معرضة لما قد تتعرض له بينهن من تنازع وغيرة وتنافس فى التحبيب
إلى رسول الله.

على أن أبا لبرة حين علم بوقوع ابنته فى السبايا راعه هذا المصير فلم
يجد بداً وهو المهزوم والمغلوب على أمره من أن يسعى إلى المدينة ومعه من
الإبل ما يكفى لافتداء بنته، وسار من توه إلى الرسول قائلاً:

- جئت بفدية بنتى، فإن مثلها لا يسبى ولا يعد فى الإماء.

فأجابه محمد:

- برة موفورة الكرامة ومن أجلها غدا الأسرى والسبايا أحرارا.

وقد شئت أن تكون لى زوجة، وهأنذا أخطبها إليك على أن آتيها بصدق، وأرعاها بمودة وإحسان.

ولان قلب الحارث وتفتح للإيمان بالله ورسوله، فخرج من لدن محمد راضيا تائبا، وقد تحول العدوان فى نفسه إلى ولاء وتقدير لهذه المعاملة النبيلة، وهذه الرسالة التى يؤديها الرسول إلى العرب لجمع الكلمة والقلوب، وتحرير الأنفس من الأوهام والطغیان.

وأصبحت جويرة بنت الحارث من أمهات المؤمنين سعيدة بدينها وزوجها مشاركة ضراتها فى التعبد وطاعة الرسول الذى علمها ما لم تكن تعلم، وقد أبت أن تكون فى الصف الذى يجمع بين حفصة وعائشة وزينب فى التنافس والتهامس من أجل زوجات النبی الساعيات إلى الغلاب عند الزوج العطوف الكريم.

لقد تركت جويرة هؤلاء فى متاعبهن النفسية وضمنت لذاتها الوقار والكرامة فى جنب الزوجة الصبور والمجاهدة الماجدة (أم سلمة) هند بنت زاد الרכب (عبدالله بن أبى أمية) التى تزوجها الرسول بعد أن سجلت فى تاريخ الجهاد صفحات مشرقة بالبطولة والفداء، وياتت أرملة لابن عمته الصحابى المهاجر عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المكنى بأبى سلمة.

ولم تكن أم سلمة شابة فتية شغلتهأ أنوثتها عن دنياها، بل كانت فى كهولة موقرة، عرض عليها الزواج أبو بكر ثم عمر لتكون فى بيت يرعاها ويعتز بها، بعد أن أصبحت أرملة ذات يتامى فاعتذرت وآثرت أن تعيش لهم متفرغة لخدمتهم، لكن محمداً شاء أن يواسيها بنفسه وهى الأرملة الكهلة بطلب يدها وضمها إلى بيته على أن لا يتخلى عن عيالها فى معيشة أو عناية.

وانصرفت جويرية إلى التعبد والاعتداء بأم سلمة في ذكر الله وما مر بحياتهما من حول وجهاد وبغيات، وكانت عائشة تنظر إلى جويرية على حسابان وخشية من أن تغلبها بجمالها. ثم شغلت عنها بحكاية الإفك التي روجها وأشاعها ابن سلول الذي أشعل نار الفتنة في الشجار على السقاية من الآبار.

وما كان حديث الإفك إلا دساً لثيما من زعيم الخرج ابن سلول الذي لم تنفع معه مجاملة الرسول لعله يرتدع ويكف عن الوقيعة والدسياسة بين المؤمنين والأعداء، وقديماً كانت أخبار السوء أكثر نفاقاً من أخبار الخير والمعروف فما همست شفاه دنيئة بأن عائشة تخلفت عن ركب الرسول العائد إلا لتعود مع صفوان حتى سرت الهمسات باللمزات وهى بنت الصديق الذي لم يوصم بأخف ريبة قبل الإسلام وبعده، وقد عرف بيته بالتقوى، وكانت عائشة فى الطفولة وعلى الحداثة أكبر من سنّها فى رصانتها وعصمتها لكنها وشاية مكشوفة للوقيعه بين محمد وأعزّ صحبه وأقرب الزوجات إلى قلبه، حتى ظهرت الحقيقة والبراءة.

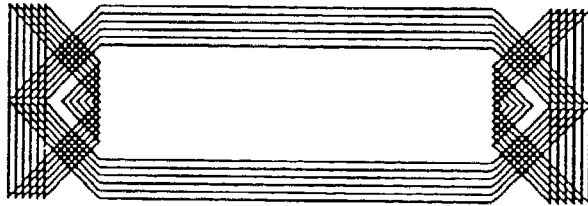
تلهت عائشة عن جويرية فلما أظفرها الله على الأعداء عادت إلى منزلها وضراتها، تتسلى وتقلب وجهها فيمن حولها، وجويرية مشغولة مع أم سلمة بالعبادة والأخذ بأصول الدين، وقد بقيت على زهادتها وعزوفها عن المباح، حتى توفيت بعد النصف الأول من العصر الأول للهجرة فى عهد معاوية، وكان مروان بن الحكم حاكم المدينة فصلّى عليها وبقيّة الصحابة والتابعين وأودعوها مرقدّها الأخير فى البقيع حيث أودعت نساء النبى وأمهات المؤمنين.

صفية بنت جحي

(النخيرية)

«ألا قلت لعائشة وحفصة: كيف تكونان خيرا
منى وزوجى محمد، وجدى هارون وعمى
موسى»

من حديث النبى ﷺ لصفية



توالت المكايد والمعارك بين المؤمنين وأعدائهم من المكابرين المستهينين بدعوة محمد بعد وصوله إلى المدينة، فى السنة السابعة للهجرة. وكان الرسول يرى كبار اليهود يتوددون إليه رياءً وزلفى، فاصطنع المودة معهم ليهدهد من عنفوان كيدهم وحقدهم، وقد رضى بتوثيق العهد بينه وبين زعماء هؤلاء الأعداء الذين كانوا يشتدون على الأوس والخزرج خشية أن يميلوا إلى الإسلام، فراحوا يخادعون النبى وصحبه ليستعينوا بهم على مناوأة الذين يخالفونهم فى الدين من المسيحيين، وقد فاتهم أن محمداً كان أدرى بما بيتوا له ولرسالته، فإن أحبار اليهود قرعوا فى التوراة أن نبياً من العرب سيظهر بدين جديد يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلما رأوا محمداً بعلامات هذا النبى ورسالته أدركوا أنه هو الرسول المرصود، فأضمرؤا له العداوة والبغضاء وأظهروا المجاملة والرضا حين جاء المدينة مهاجراً من مكة، نازلاً قباء فى بنى عمرو بن عوف فأقبل على محمد فيمن أقبل من كبار المدينة أبو ياسر وحى بن أخطب وخرجا من عنده وهما أشد عداوة له ولرسالته.

وتنادى كبار اليهود للمشورة فيما ينبغى أن يجبهوا به الدعوة الإسلامية، فقد خافوا الهزيمة والضياع إذا استجاب لها جماعة منهم فرأوا أن يعملوا على دس الخلاف والتنافر بين أهل المدينة، وأن ينقضوا العهد ويغدروا بمحمد وأنصاره، فكان حى بن أخطب أسرع جماعته إلى تدبير الفتن وإغراء المضعوفين منهم بالكيد للمؤمنين، ولما تأكد الرسول مما يبيتون ويفتنون أنذرهم بالحصار والطرده من المدينة، فشق على كبارهم هذا الإنذار ومضى حى بن أخطب إلى قريش وغيرهم من المعاندين يوغر صدورهم شراً وعلوها حقداً وكيداً، وراح هؤلاء المنافقون إلى القبائل والأحزاب يحضون على نقض العهد وتحدى الرسول بالمشاكسة والعناد، فأمر محمد بطرد الغادرين من المدينة، ولما تأبوا عليه ضرب عليهم الحصار فانهزموا وخابوا، ثم عاد حى بن أخطب إلى العدوان والتحدى حتى حق للمؤمنين أن يقاتلوا هؤلاء الأعداء الغادرين، وكان الحكمان

فى جزاء الناكثين عهدهم وميثاقهم حليفين لفريقين منهم، هما سعد بن معاذ وسعد بن عباد اللذان أمرا بقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، وكان قصاص الشرير الخطير حى بن أخطب ضرب عنقه بالسيف فهاج كيد اليهود فى خيبر أحسن معاقلهم، وما كاد جيش الرسول يلتف بمن أنذرهم وهددهم حتى تداعت خيبر ونزل بحصونها الخراب، فقد انتصر الحق على المبطلين وظفر نضال المؤمنين بمن آذوهم وكادوا لدعوة الرسول.

وجاء موكب السبايا فى هوان وعويل وفيهن صفية بنت حى بن أخطب عدو محمد ودعوته، لكنها ما كانت فى قلبها وشعورها على مذهب أبيها منذ سمعته وهو سيد قومه يحدث أخاه أبا ياسر بكرهه لمحمد وأنه سيبقى عدواً له ما بقى فى الحياة، وليس عجباً أن تخالف صفية فى سرها رأى أبيها وميله، فقد كانت مثلها رملة السفىانية التى آمنت بمحمد وكان أبوها أشد مقتاً له من حى بن أخطب.

وتزوجت صفية مرتين من زعماء اليهود فى بنى النضير، سلام بن مشكم، ثم كنانة بن الربيع الذى ضربها ولطمها على خدها وعينها لأنها ذكرت محمداً بالخير والإعجاب أمامه، فهاج وغضب وخرج عن طوره وهو يحذرهما من ذكره وينذرهما بالفراق والطلاق. فلما وقعت صفية فى السبايا بعد هزيمة خيبر وأنكر زوجها كنانة أن يكون لدى قومه مال، وهم الذين تعودوا اختزانه واستغلاله فى الغدر والأذى - حل دمه بعد أن عقد اليمين والشهود على الإنكار والفرار.

أما الذين خضعوا للأمر وكفوا عن المنكر فقد عطف عليهم الرسول وصحبه وأعطاهم كتب التوراة التى لقيها المسلمون فى المغانم بعد الفتح والانتصار.

وأما السبايا فقد تقاسمهن الظافرون، وكانت صفية موضع تنازع فى القسمة والغنيمة، فلما علم محمد أن فى النساء سيدة بنى النضير بنت عدوه

حيى بن أخطب أرسل بلالا وراءها، وعاد بها صاحب الأذان وبابنة عمها إلى مجلس محمد، وفي الطريق شهدت السبيتان جثث القتلى من أهلها فبكتا بحزن وعويل حتى مثلت كل منهما أمام الرسول بردائها الممزق ودمعها اللهيف، فنظر إليهما محمد مشفقاً مترفقاً ولام مؤذنه لأنه لم يفتن لمروره بالقتلى من الأعداء دون أن يعبا بشعور السبيتين.

ورأقت صفية نبي العرب والإسلام فرآها تنظر إليه على استحياء واستعطاف، فألقى رداءه عليها ليؤذنها بأنه اختارها لنفسه تهنئاً عليها ما يكون بقلبها مما أصاب أهلها، وأرسل إلى دحية الكلبي الطامع في صفية بأن يأخذ ابنة عمها.

وأسلمت صفية بعد أن خيرها الرسول بين دينه ودينها فأعتقها وكان عتقها مقدمة زواجه منها، ففرحت صفية وردت إليها كرامتها حين أرادها الرسول زوجة يعوضها حنان الأهل وتقدير القوم. لكنها تأبت عليه في طريقه إلى المدينة، فلما علم أنها تخشى عليه قرب اليهود زال ما بنفسه من وجوم نحوها والتمس لها المعاذير في تأبيها، وكان الجيش يغذ السير صوب المدينة. لكن خبر زواجه وصل إلى زوجاته قبل وصوله فأنزل صفية في منزل صديقه حارثة بن النعمان، وما كادت تستريح حتى أقبلت عليها نسوة الأنصار بالتحيات والاستطلاع، وجاءت نساء النبي متخفيات رانيات إلى ملاحه صفية ودمائتها، ولم تستطع عائشة أن تبقى بعيدة وتسبقها ضراتها إلى المنزل الذي حلت فيه الزوجة الجديدة فراحت محجبة متنقبة للاستطلاع. ولما انسلت من بين النساء تريد الانفلات لحق بها الرسول وقال لها مازحاً:

- كيف رأيتها يا شقراء؟

فنترت عائشة يدها وبهتت، فإن الغيرة من هذه الضرة أشعلت النار في صدرها فأجابت بزهو وتهكم:

- رأيت يهودية!

فرق لها محمد وطيب خاطرها قائلاً:

- أسلمت صفية وحسن إسلامها فلا تعيدى ما قلت، وإنك لتعلمين مكانتك عندي والأسباب التي تدعوني لمثل هذا الزواج فلا تغضبى....

ودخلت صفية بيت محمد على حيرة بأمرها، فإن أزواجه تسامعن بأخبارها وشهدن من بعيد جمالها، فأيهن تختار صديقة ورفيقة تؤنس غربتها وتحنو عليها؟

وهذاها عقلها إلى الصف الذي يضم الزهراء بنت الرسول وقد أهدت إليها عقداً من الذهب كان لا يزال فى صدرها، واتخذت من عطف زوجها حماية لها من لمزضراتها كلما اشتدت بهن الغيرة واحتدم الخصام.

وكان أشد ما يؤلمها ويحز فى نفسها تفاخر الزوجات بأنهن عربيات قرشيات إلا هى، فإنها لديهن اليهودية الأصل وإن أسلمت، فلما وصل إلى سمع الرسول هذا اللمز الجارح قال لصفية:

- ألا قلت لعائشة وحفصة: وكيف تكونان خيراً منى، وزوجى محمد، وجدى هرون وعمى موسى؟

وفى مرضه الأخير سارعت أمهات المؤمنين جزعات حول فراشه متسائلات عما يحس ويريد، فقالت صفية:

- وددت يا نبي الله لو أن الذى بك فى!

فتغامزت نساء النبی من قولها لكنه رد همساتهن وإشاراتهن بقوله:

- إنها والله لصادقة...

وكان المرجو أن يزول التحاسد واللمز بين أمهات المؤمنين بعد وفاة الرسول، فإن هؤلاء الضرات لن يجدن فى بعض السوانح ما يستئن به إلى صفية التى

عرفت بلباقتها وتدبيرها، فلا ينفس عن كربهن تلقاها إذا عاودتهن الغيرة والشحناء إلا بلمزها في نسبها، وما أنكرت صفية أصلها، فقد بقيت تصل أهلها حتى أن جارية لها راحت إلى عمر بن الخطاب تخبره بأن صفية تحب السب ولا تجدد حرجاً في الإحسان إلى نفر من ذوى قرباها؛ فلما سألها عمر لم تنكربل أجابت:

- أما السب فإننى لا أحبه منذ أبدلنى نبي الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحماً...

وقد سألت صفية جارتها الواشية:

- ما الذى حملك على هذه الوشاية؟

فأجابت بندامة: الشيطان!

فغضبت صفية وقالت لها: اذهبي فأنت حرة!

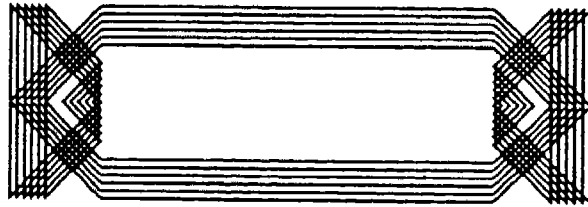
أرادت الجارية الإساءة فردتها صفية بالإحسان الذى طبعت عليه، وقد وصّت بكل ما تملك بعد موتها للمعوزين، ولما حوَّصر الخليفة عثمان بن عفان فى داره خرجت صفية من بيتها ثائرة من أجل عثمان لصد الساخطين عليه من الذين حبسوه دون طعام أو شراب. وكانت بجواره فركبت سلماً بين دارها وداره لتتنقل إليه الماء والغذاء.

ولما خرجت لتهدئة الناقمين ضربوا البغلة التى كانت تركبها دون أن يعرفوها.

وكانت وفاة صفية فى عهد معاوية، وفى مطلع النصف الثانى من القرن الأول للهجرة، وقد دفنت فى البقيع حيث دفنت أمهات المؤمنين.

رملة بنت أبي سفيان (السفيانية)

«فى ديار الضربة فى مهجرها فى الحبشة،
واساها النبى ﷺ ، فتزوجها عن طريق
التوكيل ودفع النجاشى صداقها هدية منه
للنبى عليه الصلاة والسلام»



كان لمحمد فى قومه وأهله ألد الأعداء، فقد هالهم وأعمى بصائرهم ما جاء به من عند الله فأقضى مضاجعهم وحيرهم فى أمورهم وشعورهم وهم الذين أحبوه صغيراً وكرموا كبيراً إذ جعلوه حكماً لهم فى خصوماتهم قبل أن يبلغ الثلاثين، فما باله يأتهم بما يبطل دينهم الذى وجدوا عليه آباءهم؟.

لقد ثاروا ضده وجبهوه بالإنكار والأذى واتهموه بالسحر والشعر، وقال عمه أبو جهل حين ألقى نظرة على دار خلت من أهلها أدركتها الوحشة والفجيعة.

- هذا عمل ابن أخى محمد، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا، وكانت هذه الدار الخالية لعبيد الله الأسدى ابن عمه الرسول، فعدا عليها أبوسفيان بن حرب وباعها نكايه فى أهلها الذين آمنوا بمحمد واتبعوه..

أما أبو لهب فقد التهب حقداً وكيداً، وراح يصب غضبه على من يلقاهم من المسلمين السابقين لا يترفق بنسيب ولا غريب، وقد شمخ بأنفه كل من كان على شاكلته من قريش، فراحوا إلى أبى طالب الذى رعى محمداً صغيراً وفضله على أولاده وبقى حامياً له فى رسالته، وإن لم يدخل فى دينه قائلين له:

- إن لك سناً وشرفاً ومكانة فينا، وقد صبرنا على ابن أخيك لكى تكفه عنا أو نصده نحن حتى يهلك أحد منا!

لم يعنفهم أبو طالب وإنما ردهم بالمعروف وطلب إلى أهله وعشيرته أن يحموا محمداً من أذى قريش، فإن يكن على الحق فسيظهر هذا الحق وسيكون لهم من شرفه وعزته نصيب، وإن لم يكن عليه فإن الناس سيتولون عنه كما تولوا عما سبقه، فاستجاب له أكثرهم إلا أبا لهب فإنه ازداد طغياناً وعتواً.

وأما أبو سفيان كبير الطواغيت، فقد هاج وماج لانتشار الدعوة وخيبة القائمين ضدها، وهجرة الذين فضلوها على الإقامة بينهم.

وكان بين هؤلاء الذين فروا بإيمانهم وهاجروا إلى الحبشة بنته رملة التي رافقت زوجها عبيد الله بن جحش، فدوخت أبا سفيان هذه الضربة التي أصابته بإسلامها وسفرها، لكن رملة الفاضلة المؤمنة استوحشت في غربتها القصيرة لولا مرافقة زوجها وصواحبها.

وقد عانت رملة في اغترابها وهم ولادتها في أرض بعيدة، فلما وضعت حملها تلقاها وجه أنثى سميتها حبيبة، فشغلتها العناية بها عن بعض ما كانت تكابده وتلقاه، فإن زوجها خانها في الدين الجديد وارتد عنه ودان بعقيدة الأحباش الذين اندمج فيهم، فشاع أمره بين المهاجرين، وخجلت رملة أن تلقاهم بقرها وكرها، فانطوت على نفسها تحنو على حبيبته وتدعو الله أن يجعل لها مخرجاً مما كانت فيه حتى وصلت أخبارها إلى أهلها الحاقدين، فحملوها بالغل والشماتة والتريص.

ولما علم الرسول بهذا النبأ أدرك ما قد يكون لحق هذه المؤمنة السابقة من المساء والخيبة في غربتها وحياتها، فأرسل إليها يخطبها، ولم تكن إذ ذاك في حداثة ومستهل شباب، بل كانت نصفاً راجحة فعرفت الصبر على ما أصابها وقد ردت الطمأنينة إلى قلبها حين كرمها الرسول في بلد النجاشي ووكل في زواجه منها خالد بن سعيد أحد المهاجرين الكبار. فلما علموا أن محمداً وصحبه أصبحوا في مأمن من عدوان قريش قرروا العودة، فقد اشتد حنينهم إلى الوطن وازدادوا إيماناً وتثبيتاً فإن محمداً علمهم بسيرته ودعوته ألا يهابوا الردى في سبيل الله، وهذا دينه الحق يتغلغل في القبائل ويتسلل إلى البعيد والقريب من أرض العرب، ولم تخش أم حبيبة على نفسها من أبيها الذي هاج لإسلامها وهجرتها إذ غدت من أمهات المؤمنين وهي في اغترابها ومحتنها، ولعل الرسول في دعوته الحكيمة لاستهواء الأفئدة النافرة والنفوس الطاغية كان يجد الوسيلة لالتماس القريب من أهلها في الزواج، فإذا كان قد أرسل إلى أنصاره المهاجرين

أن يطلبوا له أم حبيبة زوجة مع أمهات المؤمنين اللاتى سبقنها إلى منزل الرسول
فلكى يهدد من سخط أبيها وعنفوانه، ويتخذ من هذا الزواج عوناً على الجهاد
وقرابة قريبة تمهد لما كان بسبيله وما اعتزم من فتح ودعوة بعيدة.

كان محمد عائداً من خيبر وقد أظفره الله على الأعداء فى بلاده ووصلت
رسالته وسفارته إلى كثير من الكبراء والملوك، فتلقته المدينة بالبهجة والتهليل،
وشارك العائدون من الحبشة فى موكب اللقاء وهم أشد شوقاً إلى الرسول، وكان
زعيمهم جعفر بن أبى طالب يتقدمهم بالتحية والتهنئة فأقبل عليه محمد
بالعناق وقال له:

- لا أدري بأيهما ظفرتنا وسررنا، بعودة جعفر أم بالنصر على خيبر؟

واحتفلت نسوة المدينة برملة أم المؤمنين التى دخلت بيت الرسول مكربة
معززة، لا تفوتها أعين زوجاته السابقات وهن يعرفن مكانة أبيها فى قومه كما
يعرفن مكانة عائشة لدى الرسول ومكانة أبيها عند محمد وصحبه.

ولعل عائشة وهى أصغر الزوجات وأحبهن إليه نظرت إلى هذه الزوجة
الجديدة نظرة بعيدة، فما كانت تطيق أن تدخل بيت الرسول من تفوقها قدراً
وعلماً وتتقدمها نسباً وفضلاً.

على أن رملة كانت مشغولة البال بما بين زوجها وأبيها من عداوة وجفوة
وبخاصة بعد أن علمت أن قريشاً فى مكة كادوا ينقضون عهد الحديبية ونسوا
أنهم هادنوا محمداً وعرفوا قوة الرسالة التى يحملها فخالقوه على ميثاق،
وانصرفوا إلى تجارتهم يستعيدون ما فقدوا وخسروا إبان المعارك.

حتى أن خالد بن الوليد هوت إلى الإسلام نفسه بعد عتو ونفار، لكن
أبأسفيان ثار وهدد خشية أن يتبعه كثير من أهل مكة.

ورملة من بعيد تتبع أخبار أبيها وهبوب خصومات وفتن بين القبائل
أوشكت على الثورة، ورسالة محمد يتقبلها الألوفاً بعد الألوفاً، والنصر معقود

لها ، وأبطال قريش يلتفون حولها واحداً بعد واحد، فتنادى ولادة أمها وكبرائها
لتهدئة النفوس المهتاجة والخصومة القائمة، وأوفدوا أبا سفيان زعيمهم وحكيمهم
إلى المدينة قبل أن تستفحل الخطوب في مكة وتكون سبباً في اقتحامها
وانتصار الرسالة على ذويها ، فلما تلاقوا على الشورى فيما يخشونه على
أنفسهم ومستقبلهم سارعوا إلى زعيمهم أبي سفيان بن حرب يريدونه على
أن يتولى هذا الأمر بنفسه ويلتمس لهم مخرجاً عما وقعوا فيه، ولم يستطع
أبو سفيان أن يتأبى ويستنهين بالخطر، فلم يجد مناصاً من ترك أعوانه وأنداده
على نار، ريثما يمضى إلى الرسول الذي خاصموه وشاتموا لأنه أراد أن ينقلهم من
الظلمات إلى النور، وكيف يلقاه بعد ظلم وعدوان، لكن الأمر يكاد يفلت منه
ومن جماعته إن تمهلوا واستكبروا كدأبهم في كل ما صنعوا منذ ظهرت الرسالة
وانتصر الرسول.

وذكر أبو سفيان أن بنته رملة غدت زوجة لمحمد فلا بد أن يلتبس لديها
الوسيلة ويسألها أن تكون عوناً على مسالته وتوثيق المهادنة لقومها وذويها ،
فمضى إلى المدينة على هذا الأمل، ودخل بيت الرسول ليلقى بنته رملة التي
نفرت من طغيانه، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم عادت منها زوجة لمحمد
الذي جبر خاطرهما في غريبتها ومحنتها.

لقد بغت رملة هذا اللقاء فتحيرت في أمرها ، هل تدعوه للجلوس وتنسى
أنه عدو لزوجها ؟ حتى إذا اقتحم المكان يريد مجلساً على الفراش سحبته
قدامه، ووقفت تلتقاه تذكره بأنه على غير دينها، فما ينبغى أن يجلس على
فراش الرسول.

وبهت أبو سفيان، وما تمالك أن قال لها :

- هل أصابك شر بعدى يارملة!

وخرج من عندها مقهوراً يتكتم فيما أصابه من بنته، إذ كان يرجو أن
تلقاه بغير ما لقي منها بعد فراق وعصيان، فمضى على هوان وخذلان إلى

الرسول يلتمس رضاه ويكلمه فى عهد الحديبية وأمل قريش فى تمديد المدة، فلم يرد عليه بما أراد، لكنه لم يقنط من أخذ الجواب، فراح إلى أبى بكر الصديق صديق عدوه فتأبى عليه ولم يجبه إلى شئ، ولم يجد بداً من زيارة عمر بن الخطاب الذى ذكره بعداوته للرسول وما كاد للرسالة فكيف يأتيه مستشفعاً وهو الذى نقض العهد وحرص جماعته على الغدر والعدوان.

ولما وجد أبو سفيان عمر بن الخطاب أدنى العدو تولى عنه مهزوماً، وسارع إلى بيت على بن أبى طالب وزوجته الزهراء يرجو منهما تشفعاً إلى الرسول فيه، ولعلهما ينقذانه مما يعانيه، لم يخرج من لدهما إلا برأى أعجبه من على الذى قال له:

- واللّه ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً، لكنك سيد فى قومك، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، وما أظن هذا مغنياً، لكنى لا أجد لك غيره.

فانطلق أبو سفيان إلى المسجد وفيه هتف بالناس أنه أجار بينهم. وعاد إلى راحلته فركبها على غيظ وأسف، وانفلت إلى مكة يحمل لجماعته ما لقى بالمدينة، وكيف أجار بين الناس كما نصحه على لعل محمداً يجيز جواره، لكنه لم يرد بشئ، فهال القوم ما سمعوا وخافوا أن يكون هذا خدعة لهم حتى رجعوا إلى الشورى بينهم فيما جد معهم.

وعلمت رملة ما كان من أبيها وما حمل لجماعته من أخبار لا ترضيهم، وكانت ترى بين ضراتها الوحوشات مما أصاب أباها من خزي وخذلان، فتمنت فى قلبها أن ينصر الله الرسول ويهدى أهلها إلى الحق والنور فما نفعمهم غلوهم فى الضلال والكبرياء وانحرافهم عن الخير والسلام.

على أنها فى سرها كانت ترجو المصالحة وحقن الدماء فقد احتدم بين الفريقين العداة وقريش تبذل عنفها لحصر المؤمنين فى مآزق وسد الطريق على

الدعوة فإن محمداً لم يحمل رسالته لمكة وحدها ولا للمدينة فحسب وإنما كان يشق الطريق لينطلق إلى العالم كله ويعيد للإنسانية كرامتها ويملا الأرض عدلاً ونوراً.

وإن رملة على مثل النار تتبع أخبار الفريقين حتى دخل جيش محمد بلده الأول وبلد أعدائه وفيهم أبو سفيان، فازداد هم رملة حتى علمت بانتصار زوجها وانكسار أبيها وجماعته ممن ناضلوه وعذبوه وحاصروا المؤمنين وشردوهم، فحياتهم بعد فتح مكة مهددة وقلوبهم واجفة، وزعيمهم أبو سفيان مؤمن بعفو محمد وإن لم يؤمن برسالته، وهو يعرف أن الرسول حلیم كريم فلا بد أن يشملهم برحمته، فلما سألهم ما ترون أنى فاعل بكم؟

وكان هتافهم بالأمان والعفو يملأ الفضاء حين سمعوا محمداً يقول لهم:

- اذهبوا فأنتم الطلقاء!

فاغتبطت رملة بما ترامى إليها من أنباء الفتح والعفو عند المقدرة، واستطاعت أن تظهر بين ضررتها رافعة الرأس موفورة الكرامة، وقد ازدادت فرحتها بقبول الرسول لقاء أبيها والتماس العباس منه أن يكرم أبا سفيان بما يرد له عزته في إسلامه ونفوذه في قومه فيبقى بينهم زعيماً مسموع الكلمة مرموق الطموح.

وطابت الحياة لرملة بعد فتح مكة وإيمان أبيها بمن آمنت به وفضلته على الأهل والبلد. وتطلعت إلى ضررتها عائشة التي كانت تعتز بأبيها وسبقه إلى الإسلام فاقتربت منها، وكانت تؤثر البعاد، لثلا تزيد في غيظها.

وفتحت لها عائشة صدرها فحنت عليها وعطفت، وألف بين قلبيهما ود جديد لا يشوبه ما يكون بين الضرات، فإن رملة تقدمت سنّها وعائشة في زهر

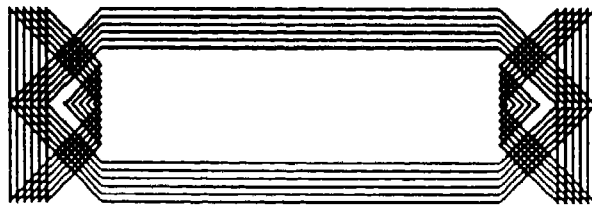
الشباب، ولما جاء أجلها أحاطتها زوجات الرسول بالأسى والرحمة، وكانت حفصة وعائشة تقرآن على روحها سوراً من القرآن، وتذكران ما كابدت رملة في حياتها من عناء وبلاء، حتى كان مرقدتها الأخير بجوار المؤمنين السابقات، وفي بلد زوجها الرسول عليه السلام.



مارية القبطية المهدية المصرية

«استوصوا بالقبط خيرا فإن لكم فيهم
صبرا وذمة»

من حديث النبی علیه الصلاة والسلام وهو يذكر مارية



هذا مجلس الرسول حافل بصحبه وأحبابه، يتحاورون ويتشاورون في دعوة الملوك للإسلام، فإن انتصار الرسالة في بلاد العرب وحاجة هذه البلاد إلى الانطلاق من نفوذ الفرس والروم في الحياة التجارية جعلاً محمداً يفكر دوماً بدعوة الملوك والكبراء إلى الإيمان بالله كما دعا الشعوب والقبائل فأمنت به ورسالته التي أضاعت القلوب وأغاثت الملهوف ورفعت راية العدل والحرية بين الناس.

لقد جلس محمد بين أعوانه يتداولون الرأي في نقل الدعوة إلى أرض غير أرضهم وإلى دول تتنازع النفوذ والسلطان، وكأنها في معسكرين على مصطلح أيامنا، يتجاذبان الحكم والسيطرة فيما جاور كلا منهما، وكانت بلاد العرب تتطلع إليهما بحذر ومصانعة لتأمن شرهما في الرسالة والتجارة.

أراد الرسول وجماعة من المفكرين الأخيار أن يفتحوا للدعوة باباً جديداً عريضاً تخرج منه إلى الملوك والأمراء لعل الإيمان يدخل قلوبهم ويجد المسلمون لديهم عوناً على ما كانوا بسبيله، وما كانت الرسالة لتبقى محصورة في الصحراء بعد أن وقفت في وجوه قريش وأوثانهم، هدمتها وبنيت لهم دين الحق الذي أبدلهم بجهلهم وبغيهم علماً وعدلاً، ومشيت مواكبه في العرب تدعوهم للهدى والتعاون على البر والتقوى، وتفتح مغاليق النفوس وأسوار المدن بإيمان يزلزل الجبال.

وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، والدعوة عمت آفاق الصحراء واستجاب لها أبطال العرب الصناديد الذين أيدوا الرسالة والرسول بإخلاصهم ومالهم، وفدوها بأرواحهم لنشر الفكرة التي حملها الإسلام في تنظيم المجتمع وخوض المعارك مع الضلالة والجهالة التي شقيت بها الإنسانية وانحرفت بها عن الخير والأمان والهداية.

ولما أعدت الرسائل للملوك والأمراء كان محمد وصحبه يستمعون لما جاء فيها، وقد صاغ كلماتها الكتاب الذين اختارهم من المفكرين والعلماء ومن

حولهم هؤلاء الذين دعوهم لحمل الرسائل من المتمرسين بالحياة، المتزودين باللباقة والمعرفة وأخبار الملوك عدا إتقانهم للحديث والخطابة.

وكان من نصيب حاطب بن بلتعة أن يتلقى من يد الرسول كتابه إلى المقوقس معبراً عما يريد.

«من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم مصر، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم قومك القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.»

حمل الكلمة حاطب بن بلتعة إلى صاحب الإسكندرية وزعيم القبط في مصر كما حمل مثلها سفراء محمد إلى غيره من الرؤساء والأمراء، على أن هؤلاء الموفدين يردون خواطرن اليوم وقد أحطنا علماً بسفراء العصر لدى الملوك والحكام إلى هذه الظواهر الجديدة في السياسة فنرى أن محمداً كان سباقاً إلى أساليب الدبلوماسية في نشر الدعوة الإسلامية.

وبلغ حاطب الإسكندرية كما يبلغها اليوم سفراء العرب أو الغرب، فخف أعوان المقوقس ورجاله إلى لقاء السفير الأول، حاطب بن بلتعة، فأنزلوه منزلاً مكرماً، وغداً من غده على عظيم مصر المقوقس، فاحتفى به وهش للقاءه، ولما قرئت رسالة النبي ودعوته انبسط وجهه وأشرقت أساريره فلم تأخذه الراجفة التي أخذت كسرى حين مزق الرسالة غيظاً واستكباراً، ولا طوفت بالمقوقس خيلاً هرقل ملك الروم حين تلقى دعوة الرسول للهدى ودين الحق لكن المقوقس زعيم مصر أنصت لرسالة النبي واحتفل بحاملها وأجاب عليها مجاملاً مداوراً في لباقة وكياسة:

«إلى محمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك، قرأت كتابك وما تدعو إليه وكنت علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام

فمنها كان يظهر الأنبياء لكنه خرج من أرض العرب. وقد أكرمت رسولك حاطبا
وبعثت إليك بهدية وبفتاتين لهما فى القبط قدر ومكانة. ومعهما أخوهما
الشيخ مابور...»

وجعل المقوقس رسالة النبى فى علبة ثمينة مرصعة بالجواهر، وقد أظهر
التكرمة والخفاوة لسفير محمد وذكر له أن القبط لا يطاوعونه إن استجاب
لدعوة الرسول وباغتهم بهذا الدين الجديد، فهو يخشى أن يفارقه ملكه، ويكون
له شأن مع قومه، ولكنه يرى أن محمداً سيظهر على البلاد ويفتحها وينشر
دينه فى الآفاق...

وكان المقوقس كان يرى يلحظ الغيب مواكب الجيش العربى حين خفقت
سنايك خيله فى الفسطاط وعلى ضفاف النيل ثم حمحت وترنحت فى شواطئ
الإسكندرية حيث كان قصر المقوقس يطل على بحر الروم، وقد تحقق حلم
المقوقس، فإن عمرو بن العاص لقي منه عوناً على الروم حين جاء فاتحاً لمصر.

كذلك عاد حاطب بن بلتعة إلى الحجاز حاملاً جواب المقوقس وهداياه إلى
رسول الله.

وتشوف الناس فى المدينة إلى هذا الركب العائد وفيه لؤلؤتان قبطيتان
من بحر الإسكندرية، وبلغ السفير العربى حديث المقوقس فأنصت له الرسول
وأدرك موقف عظيم القبط فرأى ألا يعجل عليه وعلى قومه، فلكل شئ أوان،
تجبرى به الأقدار، وقد تقبل هدية المقوقس، وكان خير ما فيها مارية القبطية
المصرية وشقيقتها.

وكان من حق هذه الهدية أن تكون مارية وأختها سيرين ملكا للرسول،
ولكنه أثر الأولى لنفسه، فتسراها ووهب شقيقتها التى سميت سعدية لشاعره
حسان بن ثابت فأكرم مثواها وأنجب منها ولده عبدالرحمن الشاعر ابن الشاعر.

وأنزل الرسول مارية وأخاها فى منزل بالعالية من ضواحي المدينة تحف به
الكروم ويرف عليه النسيم فى العشيات، وضرب عليها الحجاب أسوة بنساء

النبي، فلما ولدت ابنة إبراهيم سماها أم المؤمنين، كما حملت زوجات محمد هذا اللقب العظيم وقد أسبغ عليها مودته وحنانه، وتخير أم سيف مرضعة لوليدته على عادة العرب، وجعل في حوزتها سبعا من الماعز لترضعه من لبنها، وكان الرسول يمر بدارها كل يوم ليرى وليده ويتملى من طلعتته وطفولته، وكلما نما إبراهيم وترعرع وازداد شبها بأبيه تعلق به، وأفرغ في حبه له حنانه الأبوي الذي يضيفه على بنيه وبناته، وقد غيبهم الردى صغاراً وكباراً إلا فاطمة التي بقيت قرة عين لأبيها ونفحة ريا لروحه من أمها خديجة، فلما وهب الرسول على الكبير وليده إبراهيم بعد الستين، انطفأت في قلبه حسرته على أولاده واطمأنت نفسه برؤية إبراهيم، وكان سروره يفيض كلما ألقى عليه نظره الرحيم ومناغاته الحنون.

كانت مارية المصرية وضيئة الطلعة على سمرة محببة، ذكية القلب طيبة الشرائل، يتوج رأسها شعر أسود متمواج متجدد، وقد صفت طويتها وتقواها، فأعزها الرسول لأدبها ورصانتها، وأكرمها لأمومتها وآلف قلبها وآثرها، وإيمانها برسالتها دون قومها فشارت غيرة ضراتها، وكانت عائشة على علمها ونبوغها أشد غيرة من مارية، وبخاصة حين صارت هذه الغربية القبطية أما، ولقد حمل الرسول إبراهيم بين يديه وأقبل على عائشة ذات يوم وهو يناغى وليده وينشق خده، ثم رفعه إلى وجه عائشة وكانت بجانبه فقال لها:

- انظري يا عائشة... أليس إبراهيم شبيها بي؟

فأجابته عائشة بكلام صامت وإشارة تنم على ما في قلبها نحو مارية وابنها، لقد أشاحت بوجهها عنه ولم تلق عليه نظرة.

ولم تطل فرحة الرسول بولده أكثر من شهور لم تتجاوز العام ونصف العام، فإن إبراهيم آذاه السقام، فنقل من عند مرضعته أم سيف إلى نخيل بجوار العالية في مشارف المدينة حيث كانت تقيم أمه بين الحدائق التي أهداها مخيريق إلى الرسول بعد جلاء بني النضير عنها، وقامت مارية وأختها سيرين بتمريض إبراهيم، وكان الرسول جازعا عليه فزعا، فلما احتضر أخذ

عبدالرحمن ابن عوف بيد الرسول إلى حيث يعود ولده فرآه يوجد بنفسه فى حجر أمه، ولم يتمالك من الحزن والإشفاق فأخذه ووضع فى حضنه وقلبه واجف وعيناه دامعتان، ولما أسلم الطفل روحه إلى بارئها قال محمد:

- إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً.

وصاحت أمه وخالته، فتركهما الرسول على رسلهما، وبكى معهما قائلاً:

- يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق، وأن آخرا سيلحق بأولنا لحزنا عليك أشد من هذا.

ثم قال:

- تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون.

واشتد حزن الرسول فردّه أصحابه ونهضوا من حدة أساه وذكره بما نهى عنه فقال:

- ما عن الحزن نهيت، وإنما عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون من أسفى ودمعى هو أثر ما فى القلب من حب ورحمة وإن من لا يرحم لا يرحم...

وزاد عطفه على مارية فواساها قائلاً:

- إن لإبراهيم مرضعا فى الجنة...

ولما حملوه ليواروه فى ثراه، مشى النبى صامتا جلدأ، فسمع الأطياف والهمسات تناجيه بالعزاء وتشبته فى الصبر على بلواه، ولما دفنوه بكى ونضح القبر بالماء ووضع عليه الزهر وحط علامة بيده ثم قال:

- إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تفر عين الحى، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه...

وقد اتفق أن الشمس كسفت يوم موت إبراهيم، فحسب الناس أن معجزة حدثت. وقالوا إنها انكسفت حزناً لوفاة إبراهيم ولد محمد..

وسمع النبي لغطهم وتناهى إليه حديثهم فخرج إليهم وخطب على المنبر فقال:

- أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الله بالصلاة..

كأن ذلك الحزن العميق الذى دفنه الرسول فى نفسه الكريمة قد بللت غرسه الدموع، وكان محمد يسكبها فى صمت وسكون إذعانا لحكم القضاء فطلع من ذلك الحزن الصابر ثمر فاض بالخير والإحسان، ووزع الرسول الصدقات على المعوزين والمساكين عن روح فقيده، فأحس برد العزاء والإيمان.

وهون الرسول على مارية الشكلى حزنها ووجومها فأغدق عليها بره ورضاه، وشمل أختها سيرين برعايته، ووصى بالقبط خيراً من أجل مارية فقال لقومه:

- استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة...

وقضى لو عاش إبراهيم لوضع الجزية عن كل قبطى.

فقد كان عمره قصيراً كالأزاهير، ملأ بيت الرسول وحياته من شذاه. وما طالت أيام محمد بعد ولده إبراهيم فقد فارق دنياه فى العاشرة من الهجرة تاركاً فى قلب مارية حزناً دفيناً وطيفاً مقيماً، إذ كان لها الزوج والحبيب والرسول الذى آواها وعزاها فى غربتها وكرمها بزواجه منها فاعتزلت الناس بعد موته وكان لا يطيب لها إلا رؤية شقيقتها سيرين وزيارة القبرين اللذين ضما حبيبها محمداً وإبراهيم، لكنها عاشت بعدهما أعواماً طوتها فى التعبد والذكرى.

وقد أجرى عليها الصحابة ما يقوم بأودها، ويحفظ عليها كرامتها ومقامها فأثروها بعنايتهم وفاء لذكرى الرسول وقياماً بحقها عليهم وواجب المحبة الولا..

وقد توفيت مارية فى عهد عمر بن الخطاب فصلى عليها مع صاحب الرسول وأمر بدفنها حيث دفن إبراهيم.

وعرف القبط فى المسلمين مبشرين بالخير والمعروف محافظين على الحق وحماية المعاهدين والذين لم يستجيبوا للدين فأمنوهم من خشية على أنفسهم وأموالهم، وقد أثمرت فى القبط سماحة الرسول ومروءة المؤمنين، وتوارثوا الولاء والوفاء لرجالهم وعمالهم، فلم يجد العرب حين فتحوا مصر عوناً أفضل مما صنع القبط ولا علماً أعمق من علمهم.

وإن التاريخ ليروى العجب مما لقي عمرو بن العاص من تكرمه كبرائهم وجراياتهم على المسلمين، وقد امتلأت صحائف العرب بأنباء القبط الذين أكرموا المأمون حين زار مصر؛ فكان كلما انحدر إلى الأقاليم نصب له أهلها مصاطب وزينة، وقد اتفق أن المأمون اجتاز إقليماً لم ينزل به كغيره من أقاليم مصر فلحقت به عجوز من القبط يقال لها مارية وكم فى القبط من ماريات فضليات فاستوقفت الخليفة العربى وعاتبته قائلة:

- من حقنا عليك يا أمير المؤمنين أن تحل فينا مكرماً كما حللت عند سوانا، وإلا لحقتنا معرة لا يحوها الزمان.

وترجموا للمأمون قول العجوز، فهش لها ونزل بأرضها، ولم يكد يجلس فى ساحتها، حتى ملأتها طعاماً وشراباً ومالا، ثم جاءته بصرة كبيرة من الدنانير ليوزعها على جنده وكان معه عشرون ألفاً.

فقال المأمون للترجمان:

- قل للقبطية هل وجدت كنزاً؟

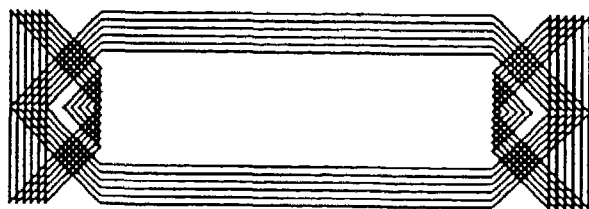
فلما بلغها الترجمان قول الخليفة ضحكت وتناولت بيدها الراجفة حفنة من التراب وقالت:

- هذا تراب مصر الخير المبارك ونحن قوم زراع... على أن رخاء عهدك يا أمير المؤمنين جعل هذا التراب ذهباً.

كذلك اتصل جبل المودة والمعرفة بين القبط والعرب منذ عرف محمد مارية التى كانت سبب هذه القرى والوثام، ومن قبل بشر بنبوة محمد كهان الإسكندرية وحكماؤاها الذين قرعوا فى كتبهم أن نبياً عربياً سيظهر وتنتشر رسالته فى الآفاق.

ميمونة بنت الحارث (الهلالية)

«إن ميمونة من أتقى نساء النبي ﷺ
وأوصلهن للرحم، وأكثرهن عبادة وحمدا»
من وصف عائشة لميمونة الهلالية



كان لهجرة الأوائل من آمنوا بمحمد وفروا بدينهم إلى الحبشة أثر عميق فى نفوس الطفافة من قريش، فقد أخرجتهم هذه الهجرة عن أطوارهم وهيجت أضغانهم. لكن الإيمان كان أقوى وكأنه الشعاع الذى سطع فى الظلمات، فأضاء دنيا العرب وامتد نوره إلى الغرب.

ولم تقتصر تلك الهجرة السابقة على الرجال فحسب وهم قلة من النخبة وإنما كانت فيها طليعة المؤمنات، فمن الراجحات الصالحات من تقدمت أهلها بالإسلام وفضلت أن تفر بنفسها من أذاهم أو رافقت زوجها وأخاها، واقتدت بأختها فى الهجرة والجهاد.

من هؤلاء السابقات كانت أخوات أربع جمع الإيمان بين قلوبهن كما جمع اللحم والدم، وعرفن بالنخوة والإخلاص للدعوة حتى سماهن الرسول الشقيقات المؤمنات.

ولقد جمع أبوهن الحارث الهلالى وأمهن هند بنت عوف خير الأصهار عليا وجعفر ابنى أبى طالب والعباس وحمزة ابنى عبدالمطلب وأبا بكر الصديق وكان خالد بن الوليد من حفدتهما الذين بذلوا البطولة والفداء للفتح والانطلاق.

من هؤلاء الأخوات أم الفضل زوجة العباس وأولى المسلمات بعد خديجة ومن المهاجرات إلى الحبشة، ولقد استطاعت أن ترد الأذى عن أبى رافع تابع زوجها حين مد أبو لهب يده الآثمة إلى هذا الإنسان الضعيف وألقاه فى الأرض تشفياً من حقه عليه، فأمسكت أم الفضل بعمود وخبطت رأس أبى لهب وتركت مشجوجاً قائلة له:

- ويحك، لقد استضعفته بغياب صاحبه!

وأُم الفضل هذه آوت أختها التي وهبت نفسها للنبي فكانت وزوجها الوسيلة إليه بتزويجها، ولعل ميمونة آخر نساء محمد، فقد استجاب لها وهي أرملة دون الثلاثين وحنا عليها في بيته وبين زوجاته، وكانت ذكية الفؤاد عميقة الإيمان متفانية في خدمة الرسالة، فأكرمها الرسول وبرها وكان اسمها برة، لكن محمداً سماها ميمونة تيمناً بالعودة إلى مكة عام زواجه منها، وهو عام اللقاء بعد الفراق، لقد غاب عنها وصحبه سبع سنوات منذ عهد الحديبية فكان لعودتهم إليها على شوق وتحنان هزة في قلوب المسلمين الذين دخلوها آمنين ليقوموا بفريضة العمرة ويتنادوا إلى التعاون على البر والتقوى، وقرش تشهد من بعيد نساء ورجالا آمنوا بالله ورسوله وولوا وجوههم شطر البيت الحرام مبتهلين مكبرين.

وما كادت الأيام الثلاثة تمضي بسلام ووثام، حتى نامت الفتنة القديمة وفترت الخصومة المحتدمة، فود الرسول لو يستجيب لدعوته أهل مكة، فيتحدث إليهم من جديد، ويعد لهم طعاماً يحبونه، لكن بعض الخبثاء أنذروه بالانصراف فقال لهم:

- اتركوني حتى أتزوج برة وأصحابها من مكة..

فرفضوا طلبه خشية أن تفتح مكة صدرها لدعوته، ووفى الرسول بعهد، فأوصى أبا رافع بأن يلحق به ومعه برة..

وانضمت برة الميمونة أم المؤمنين إلى زوجات النبي، معتزة بهذا الزواج الذي أكرمها ونعمها، وقد شهدت عائشة بأن ميمونة كانت من أتقى نساء النبي وأوصلهن للرحم، تعطف على أهلها وتأخذ بيد الضعيف وتعين المسكين وتتعبد الله حامدة له نعمته عليها.

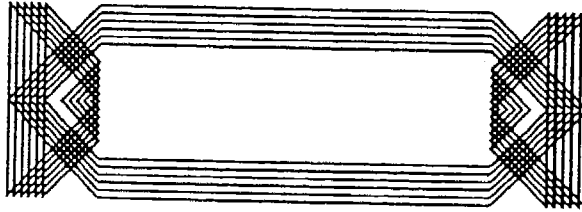
وعمرت ميمونة بعد الرسول خمسين عاماً حتى جاءها الأجل فأوصت بأن
تدفن حيث تزوجها الرسول في «سرف» من ضواحي مكة تاركة ذكرها الطيبة
وما قدمت للرسالة وللإنسانية من خير ومعروف.





زَيْنَبُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ

«نُحِتَ جَنَحُ الظَّلَامِ رَحَلَتْ زَيْنَبُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى
الْمَدِينَةِ، امْتَثَالًا لِلدِّينِ الَّذِي لَا يَبِيعُ بَقَاءَهَا
مَعَ زَوْجٍ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ، وَيَأْسَى الرَّسُولَ عَلَى
بَنْتِهِ فَيَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أَبَا الْعَاصِ إِلَى
الْحَقِّ، وَأَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»



على مستشرف من البيت العتيق فى أعطاف مكة، تقوم دار أبى العاص ابن الربيع زوج زينب كبرى بنات محمد، وأبو العاص ألمعى أريحي من أبطال قريش، غناه إلى خديجة بنت خويلد نسب قريب فهو ابن أختها هالة، وقد عرف فى قومه بسداد الرأى والحفاظ، وابتلوه بالأمانة والرزانة فوجدوه حافظاً لمالهم ومكانتهم فى تجارتهم ومعاملتهم، حفيماً بأهله وعشيرته وفيماً لهم فى القرب والبعد.

كان أبو العاص يسعى إلى بيته فى أماسيه منصرفاً من عمله أو قافلاً من سفره فلا يكاد يصدق أن أول وجه يلقاه كان وجه خالته خديجة وبين يديها بنتها زينب فإذا طلعت عليه تهلل وجهه وأنس بحفاوة الخالة الفاضلة وبشاشة الصغيرة التى كان يدنو إليها بقلب متفتح وأمل كبير.

ولقد كان هذا اللقاء بين يوم آخر تسرية لابن الربيع عن تعب النهار وشغل البال، فإن متاعبه فى السفر والتجارة وبخاصة فى موسم الحج كان ينساها كلما زار بيت خالته خديجة التى كانت تختصه بالمحبة والتكريم وتطمعه فى تحقيق أمله بأن تكون زينب من نصيبه، حتى استجاب محمد لهذه الرغبة واستطاع أهل خديجة أن يعتزوا بهذا الزواج الذى جمع بين فتاهم القرشى الأصيل وبين كبرى بنات محمد. وكانت زينب تتفتح عن صباها الجميل الذى كان يزينه الذكاء والحياء فأدخلت السعادة على قلب أبى العاص ولم يكن يتقصها إلا غيبة الزوج فى تجارة قريبة أو بعيدة حتى اصطفى الله محمداً لرسالته وكان دينه الحنيف أعز من الأسرة وأبقى من القربى ورسالته للناس كافة، لا لبيت من البيوت أو لقبيلة من القبائل، فويح زينب وويح أبى العاص معها! إنها لفى حيرة من أمرها وهو فى حرج من أمره.

هذا محمد رسول الله، آمنت به خديجة وآمن به صاحبه أبو بكر وأخذ دينه ينتشر بين أهله وأصدق صحبه، وكيف تحجم زينب عن الإسلام ولا تؤمن

بما جاء به محمد من عند الله، إنها كبرى بناته ولها أسوة في أمها وفي المؤمنات السابقات، ولكن أبا العاص خلفها مريد السحنة متجهم الوجه، وقد زوى ما بين حاجبيه واستبد بجاهليته، لا عدواناً على الرسول، وإنما إبقاء على عزته القرشية، ثم لا يكاد يمضي في قمره واستبداده، حتى تلوح له زينب زوجته وبنات خالته راجعة من بيت أبيها، يضيء وجهها بشراً وإيماناً، فلا تقع عينها عليه في لقائه حتى يرتد تلاًكؤ وجهها حناناً وإشفاقاً، فتنسى ما كانت عليه منذ قليل من فرحة بالدين الجديد، وتحلة لأبيها الرسول الذي أطاعته في إسلامها، فقد شرح الله صدرها لهذا الدين الحنيف فتسعى بين يدي زوجها أبي العاص تفديه وتكاته ما كان من أمرها وأمر أبيها، وتندفع إليه صافية النفس مترفقة به كعهده بها قبل إسلامها، لم يبدلها نحوه هذا الدين، وما صدته عنها عزته القرشية، ولكن هذه المودة وهذا الوفاق لا يمكن أن يدوماً على تلك الحال فالإسلام يمضي قدماً في انتشاره، وقريش وأبو العاص يمشيان قدماً في الكفر والعنت والوقوف في وجه الرسالة خشية أن تشيع في البيوت والأحياء، وما أحسب أبا العاص وقد أخذ بما أخذ به قومه من عتو ونخوة وإبتغاء الوسيلة إلى تلهية محمد بما يزهد بالدعوة ويشغله عنها يرضى بما ارتأى أبو جهل ويقتدى بما فعل عتبة وعتيبة اللذان سرحا بنتي الرسول رقية وأم كلثوم كرهاً لأبيهما وطوعاً لأبي لهب الذي قال لولديه:

- رأسى من رأسيكما حرام إن لم تسرحا بنتي محمد.

وأطاعا على مضض، ففارقا زوجيهما كارهين.

ولقد جاء أبو جهل ذات عشية يدلف نحو أبي العاص كما تسللت الأفعى واندست بحواء، فوسوس إليه أن يطلق زينب، أو يتزوج غيرها واحدة من هؤلاء اللاتي سماهن له وهن غرر الغواني من قريش، وما ينتهي أبو جهل من إغوائه وفتنته تحت جناح الليل حتى ينهض أبو العاص من لدنه متثاقلاً متململاً، وقد تجهم وجهه لأبي جهل، وفاض قلبه حنيناً لزينب:

أكان أبو جهل يحسب أن أبا العاص مثل عتبة وعتيبة إذ وسوس لهما وحملهما بمكره على طلاق بنتى محمد؟ هيهات هيهات.. فقد خاب فآل أبى جهل وتبت يدا أبى لهب!

ها هو ذا أبو العاص يعود إلى بيته أكثر بشاشة وأصفى قلبا، وتتلقاه زينب بأنسها ومودتها، ويتحاشى أن يؤذى شعورها لإيمانها واقتدائها بمن أسلم من المؤمنين والمؤمنات فلا يصدها عن الذهاب لدار أبيها، ولكنه أخذ يضيق بنفسه، وبقيت حياته معها فترة من الزمان فاترة سادرة، ولكن ليس فيها تنغيص ولا فيها تسريح.

ويأبى الله إلا أن ينشر دينه فى أرجاء الجزيرة، فيأمر رسوله بالهجرة، ويأمر المؤمنين أن يشتروا أنفسهم فى سبيل الدين، ويرتحل الرسول وصاحبه، وتستقبله المدينة بأنصارها وأبرارها مؤمنة رافدة، وخيرة مسندة، وقد مكن الله لرسوله فى يشرب من قلوب أهلها الأوس والخزرج، ففدوه بمالهم وأرواحهم، وحموه مما يحمون منه أولادهم ونساءهم، فياللعباد كيف وقع بين محمد وبين بنته! ويا للإسلام كيف يشاء منذ اليوم أن يفرق بين المرء وزوجه. إن هذا الفراق ليلج فى قلب زينب ويأخذ بشغافها، وتحن نفسها الخالصة إلى أبيها، وترمى صاحبة هذه النفس المؤمنة التقية نظراتها وراء الأفق عبر الرمال الرمضاء من أجواز مكة نحو أطام المدينة، لكنها تتخيله فى أصابعه وأماسيه قلق البال، مشفق الجوانح، يذكرها كما تذكره، ويتوق إليها كما تتوق إليه، فتتململ زينب وتضيق بزوجه أبى العاص متمنية لو أنه أسلم طائعا مختارا، فجلب لقلبها الأمن والسرور، ولقلب أبيها الراحة والرضى، ثم ترتد نحو ولديها على وأمامة فتبقى على أبى العاص من أجلهما، ولكنه عتا عن أمر أبيها ولم يستجب لدعوته، واتصل سببه بسبب قومه المتأبين المكابرين، فأخذ قلبها يحن إلى أبيها، وقد آثرت الرحيل عن مكة مهما يكن المصير.

ويهب أبو العاص فى هبة قريش لمناواة محمد وحرب الذين سندوه وأيدوه، فتؤلب جمعها وتعد عدتها، لهذه الحرب الطاغية، لا يصد أبأ العاص حبه لزينب عن مناواة أبيها والمؤمنين، مدفوعا بحميته الجاهلية وعزته القرشية فيمضى فى غزوة «بدر» شاك السلاح مع صحبه المقاتلين، ويلتقى الجمعان قريش العvisية العاتية والمؤمنون المجاهدون، فيلتحمان فى معركة حمراء هى التى قررت مصير الإسلام، ولما انجلى غبار الموقعة عن هزيمة قريش وظفر الرسول وصحبه، كان فى الأسرى أبو العاص، وما ندرى كيف باتت زينب فى مكة وقد فصل أبو العاص فيمن فصل من المناوتين، فهل بكت زينب خوفا عليه وإشفاقا على أبيها وأنصاره، وهل فاض دمعها كما فاض دمع زوجة عبدالمملك بن مروان من بعد زينب بأجيال يوم هب عبدالمملك إلى الغزو والقتال؟.

لا ريب أنها باتت قلقة مؤرقة، يدعوها الإسلام لأن تضيق بأبى العاص ولا تداريه، ويدعوها حب الزوج لأن ترجو له النجاة مما قد يلم به من الأذى، وما أحسبها كانت ترجو له ظفراً على أبيها الرسول.

وحاق بزينب قلق وضيق، فما راعها وهى فى لهيب من هواجسها الملحة وذلك الرجاء العميق، إلا نذير أشرف على مكة رافعا صوته بالنداء والبكاء، معلناً خيبة قريش وانكسارها فى وقعة «بدر» ومعدداً إلى ذلك أسماء القتلى والجرحى، وأسماء الأسرى، فيالهمة زينب وهى فى هذا الجمع الواجب الراجف، حين استقر فى سمعها أن أبأ لعاص فى الأسرى؟..

لم تكن مصيبتها فادحة، فقد باتت تحمد الله لأن زوجها غدا أسيراً، ولم يكن قتيلاً، ولكنها أيقنت أن الله سيحق الحق ويهق الباطل، وأن رسوله سيأخذ أبأ العاص بجريسته كما يواخذ الكافرين بعنتهم وأذاهم.

وقام داعى مكة يدعو إلى فداء الأسرى، فركض أهلهم بما عندهم من مال ومتاع، وتلفتت زينب فلم تجد فى حوزتها من المال ما يكفى لفدية أبى العاص، فأخذت قلادة كانت عندها أثيرة غالية، قلدها بها أمها خديجة، وكانت القلادة

حبيبة إلى أبيها عزيزة لديه، فهي تحمل خيالا من عنق خديجة حين كانت تزdan بها، وتحمل ذكرى بعيدة لا تقدر بثمن، ولكن ماذا تفعل زينب وهي تريد أن تفتدى زوجها؟ فكانت تلك القلادة فيما حمل من المال فى سبيل الفداء.

وطرحت الفدية أمام الرسول وصحبه، فافتدى بها أهلها أسراهم، وأمسك بالقلادة أحد الصحابة يقلبها بكفه، فوقع نظر الرسول عليها وعرفها، وأدرك بقلبه الكبير لحظه النافذ كل ما أحاط بهذا العقد من غابر وحاضر.

وهتف أحد أصحابه: هذا عقد زينب بنت رسول الله، تفادى به زوجها أبا العاص!

فياموقنا لمحمد، ما كان أروع وما أشد ما كان فيه من ألم واستحياء؟ فقد ذكر حنان زينب ووفاءها وإهداء أمها إياها هذه القلادة، ففاض شعوره واحتاجت خواطره، وأكبر بر الزوجة واستغناها عن أعز شئ لديها فداء لزوجها ووفاء له، فعز على الرسول أن تبذل القلادة بذل المال وقد قبل زهيدة فى فدية الأسرى، وسأل النبى صحبه عن رأيهم فى شأن هذه الفدية. وحين أدركوا موضعها من نفسه ومن نفس بنته زينب، تجاوزوا عنها وردوها مع الأسير، فانطلق أبو العاص نحو مكة حاملا فى عنقه منتين: واحدة هى عتقه، وثانية هى ثمن هذا العتاق.

واستقبلت زينب أبا العاص وهو شارد النفس، مبجل الخاطر فتلقته بالابتسام والمودة، وردت عليه نفسه الضائعة. وما كادت تستقر حياة زينب بعد عودته وتطمئن قليلا حتى باغتها القرآن بآيات بينات تحرم أن تكون زوجا لمشرك، فبانت زينب من زوجها أبى العاص وهمت بالنزوح من عنده سرا. ولكن لهفتها على أبى العاص وبرها به وكلامها مع أهل القافلة كان يجذب نحوها الظنون بالسفر، ويشيع بين قريش أهبتها للرحيل، وإنها لتعد العدة، وتخفف من الأحمال فى هدأة من الليل فتفاجئها هند بنت عتبة وتسألها:

يابنت محمد بلغنى عزمك على الرحيل وهجر أبى العاص.

فتنكر زينب ويتلجلج لسانها ، فتقول هند:

- لا تكذبینى يا زينب، فإن ما بين الرجال لا يتعداهم إلى النساء وإن أخرجتك معونة من مال أو جهد فإن أولى الناس بإسعادك بنت عمك هند..

فسرت زينب من كلامها ، وطاب خاطرها ، وشكت إليها بثها ، وقد عجبت كيف انكشفت عزميتها بالسفر ، فلم تعباً بلغو قريش ولا أبهت للملامتهم ، بل مضت إلى غايتها .

وإن ركبها ليمضى فى عرض البیداء وتطوى تحته الأرض تحمل امرأة معذبة النفس مشبوبة الفكر، القلب ما يزال عند أبى العاص فى مكة ، والعقل يسوق المرأة القانتة المغلوبة على أمرها ، فقد أطاعت أباها ونبيها واتبعت دينه ، ففرق هذا الدين بينها وبين زوجها .

من الطارق على محمد تحت جناح الظلام؟ من هذا المتلفع بالسواد يلتمس بيت الرسول وينتظر لقياء؟ إنه لزينب كبرى بناته، ترمى على يدي أبيها فتغمرهما بالدمع، ويغمرها بالرحمة والحنان، فتحدثه برحيلها فراراً بإيمانها، وامتنالاً للدين الذى لا يبيح بقاءها مع زوج لم يؤمن بالله ولم يشاركها فيما يستمتع به المؤمنون من نعمة الإسلام، فيحن قلب الرسول ويأسى على بنته فيدعو الله أن يهدى أبا العاص إلى الحق وأن يشرح صدره للإسلام.

وعطف الرسول على بنته، وشق عليه أن تفارق زوجها مكرهه، فإن هذا الفراق لينغص أيامها ويكدر عيشها، فواساها بحنانه ووصاها بالصبر والتقوى، وملأ قلبها أملاً بأن أبا العاص لابد أن يذعن للحق ويفى إلى أمر الله.

وتصبح مكة خالية من زينب، عالة برحيلها! فتهرع قريش إلى أبى العاص مستفهمة متلاومة، وتخوض السنة الثائرين فى الأقاويل، فتهجوه هند بنت عتبة، وتعير الذين عرضوا لزينب فى هجرتها قائلة إنهم فى السلم أعيار وفى الحرب أمثال النساء العوارك.

كان أبو العاص مثل زينب، قلبه فى المدينة وعقله فى مكة يعذبه ويؤنبه، ولعله انصرف إلى التجارة والسفر تلهياً عن فراق زينب وكبتا لوجده وكرهه، ومنجاة من ظلامه قريش، وماله لا يبتئس ويضطرب وقد فارقت زينب، وتخلت عنه لتأبيه وصدوفه عن الأخذ بما أخذت به إيماناً و يقيناً؟.

وامتلأت نفس أبى العاص موجدة وغيظاً، وملك القلق عليه أمره، فراح أصحابه يعطفون عليه، ويستحثونه على الاتجار، فاستجاب لهم ليتلمى، وسعى إلى الشام فى قافلة مثقلة بالأحمال، فيها من مطارف مكة وقمرها، وفيها من الطيب والعطور والحجارة الكريمة شئ كثير.

كانت المطايا تمضى بأبى العاص وصحبه، وقلبه عند زينب يحدثه بحديثها، ويعذبه باللوم والندم، وقد أحس الحنين إليها والإشفاق عليها فتبرم بهذا الدين الجديد الذى فرق بينه وبينها، وهاجت فى نفسه الكبرياء فأبت عليه أن يأخذ بدين زينب حفاظاً على عزته القرشية وتماسكاً مع قومه. وكانت القافلة تسرى فى عرض الصحراء لا يسمع منها حسيس إلا وقع مناسم الإبل على الرمل، فطاب لأبى العاص أن يتغنى بحب زينب ووفائها. وأن يناجيها بشعر يفيض حنيناً إليها وحسرة عليها، فكان ينشد شعره خافتاً منغمساً لا يكاد يسمع معه صوته.

وقد قطع أجراس الإبل لثلاثاً توسوس فى الليل فيسمعها أحد السارين فى الظلمة المدلهمة، وربما كان من قوم الرسول، فيعرض للقافلة ويقبض ما فيها من مال وأحمال، وكأن أبا العاص أحس ديبها أو سمع ركزاً، فكف عنه تنغيمه وغمغمته، وأرهف سمعه، فإذا فوج مقتحم يفجأ قافلته وخلفه سرية عليها زيد ابن حارثة فيها مائة وسبعون راكباً، تصدوا للقافلة وعدوا عليها فلم يدعوا مالا أو متاعاً إلا أتوا عليه. وكان ملك نفر كثير من أهل مكة. دفعوه لأبى العاص لكى يكسبوا من تجارته الراححة، ونجا أبو العاص بنفسه، وكان يتمنى لو طاوعته نفسه فيكون مع رجال قافلته أسيراً، إذ كيف يرتد إلى مكة مسود

الوجه صفر البدين، ففلت من السرية وخطا أسرع خطوات مضطربا مكروبا، نادباً حظ هؤلاء الذين ائتمنوه على مالهم ليتجر به، فكيف يلقاها بالخزي والخيبة؟.

وخطرت بباله زينب فأجهش بالبكاء، وتنازعت خواطر عنيفة به مشتتة عليه، حتى ضاق بنفسه وطالت حيرته، وما لبث أن هاجت فيه عزته ومروءته، فرد نفسه عن هواجسها معللاً إياها بقلقها زينب فهي التي تفرج كربها وتهون خطبته..

ولم تكد القافلة المسلوية تصل إلى الرسول وصحبه حتى كان أبو العاص يمضى لطيبته مندفعاً إلى بيت زينب.

كان الأرق في تلك الليلة قد جد بزينب. وخفق قلبها لذكرى أبي العاص وشوقاً إليه، وكأنها كانت تتخيل في لحظ الغيب ما حاق به من مكروه فقد حدثها قلبها حديثاً ونازعتها نفسها إلى ابن خالتها أبي العاص، فهل ارتدت لهفتها حين أطل عليها لاثذاً مستجيراً؟ وهل اطمان قلبها حين رآته بين يديها يقص عليها ما عرض لقاقلته من سلب وعدوان؟

لقد رقت له زينب وأشفقت من تعرض أبي العاص لأقارب قوم، وفيهم ناس دفعوا إليه أموالهم وحملوه بضاعتهم، فشكا إليها همه وكيف يلقي هؤلاء الذين وضعوا مالهم أمانة في عنقه، وقد شاء القدر أن يثول إلى المسلمين فلا منجى له ولا معتصم إلا بزينب وأبيها.

وكانت زينب ترجو أن لو أتاها أبو العاص مؤمناً مدعناً، ساعياً لمرضاة الله، فيشاركها في دينها ويعود إليها مسلماً متندماً على قناده في عنفه، وغلوه في حفاظه وتمرده، لكنه أتاها حائراً مستجيراً، وقد بلغت شكاته قرارة نفسها، فكيف لا تحجيره وتخرجه من ضيقه وهي العربية الوفية التي لا تخفر الذمة ولا ترد المستجير؟ ولو أن أبا العاص لم يكن لها زوجاً لأجارته ولما حال

بينها وبين غوثه ونجدته دين أو خلاف، فكيف وهو أبو ولديها وابن خالتها؟
لقد عذمت زينب أمرا ولن ترجع عنه، وستمضى إلى تحقيقه مهما كلفها وعانت
من أجله.

ها هي ذى بنت الرسول تدلف إلى المسجد فى مطلع الفجر وتنتظر على
الباب حتى يصلى أبوها الصبح بالمسلمين، وها هي ذى تطل على النبى وصحبه
وهم فى المسجد، ثم تقف تلقاهم، وتنادى بأعلى صوتها:

- إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فيدهش الرسول ويعجب المؤمنون من حوله فيأخذهم الإشفاق والإكبار لهذه
الزوجة الوفية الحنون، ويقول الرسول:

- والذي نفسى بيده ما علمت بشئ مما كان حتى سمعت الذى سمعتم!
المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أديانهم، وقد أجرنا من أجارت زينب.

فاستجاب له المؤمنون، وأحسوا لبنته الرحمة والإشفاق، فسارعوا إلى
تلبيتها وإجارتها، وراحوا واحداً خلف واحد يجمعون المال الذى كان فى قافلة
أبى العاص والمتاع الذى توزعوه، فردوه كاملاً غير منقوص عن رضا وطاعة
ورأفة. وشاهد أبو العاص أمانة المؤمنين وصدق إجارتهم وحديثهم، وشاهد ردهم
مال القافلة بأمانة وإخلاص. ورأى صلاتهم وقنوتهم فشرح الله صدره للإسلام
عن رضا وإيمان بغير قسر ولا إكراه، وكادت عيناه لا تصدقان أن يديه أمسكتا
بخطام القافلة ومالها ومتاعها فأعد عدته للرحيل، وفصل من المدينة مرتداً إلى
مكة ليعيد المال والمتاع لأصحابه، ولم يكذب يبلغ يثرب حتى كانت أخباره وأخبار
القافلة قد سبقته إلى قومه فخرج إليه القرشيون ليأخذوا بتلابيبه ويدايئها،
وما راعهم إلا مالهم وبضاعتهم بين أيديهم يعيدها إليهم أبو العاص كما أخذها،
فيقبل عليه أصحابه، ويسألونه عن محمد وكيف استرد منه المال بعد سلب
القافلة، فيقص عليهم أبو العاص أحسن القصص عما شهد من فضل محمد

وهدى المسلمين وكأنه السحر من فيه ينفضه على كفرهم وعتوهم، فيتمنى بعضهم أن لو آمنوا بالرسول واتبعوا ملته واهتدوا بهداه، ويتميز من الغيظ كبارهم وأقويائهم فلا يعجبهم قصص أبى العاص، وإنما يتلقونه مستهزئين ساخرين ويسألهم أبو العاص:

- يا معشر قريش.. وهل بقى لأحد منك عندي حاجة؟

فيجيبه أصحاب المال والمتاع:

- لا.. يا أبا العاص! جزاك الله عنا كل خير، فقد وجدناك وفيًا أمينًا.

وسكت أبو العاص قليلا، ثم تقدم بآيته الكبرى، فقال على ملا من قومه:

- اشهدوا يامعشر قريش بأننى آمنت بما جاء به محمد واستجبت لرسالته التى تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن المنكر والبغى. والله ما الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى أردت أن أكل أموالكم، فلما أداها الله إليهم. أعلنتكم إيمانى بهذا الدين الجديد.

فبهت أصحابه ممن عصوا الرسول وكانوا مستكبرين، وثاروا على أبى العاص إذ كانوا يعلمون حميته الجاهلية وإقامته معهم على مناواة المؤمنين، فكيف استكان ولان؟ ولعلمهم عنفوا عليه بالعتاب والملام، وكان معهم نساء لا يشاركن رجالهن فى لوم أبى العاص وخروجه عليهم، إذ كن يعرفن زينب ويعلمن أنه لا ينبغى لمثلها أن تفارق أبا العاص ولا لمثل أبى العاص أن يصدّه الدين عن زوجه الحنون.

وجمع الإسلام شمل الزوجين الحبيبين تحت ظله الظليل الذى انبسط فى أرجاء مكة بعد فتحها، فأثر أبو العاص أن يبقى مقامه فيها. إذ كان فيها بيته وعدته وفيها أمواله وتجارته. فضم إليه زينب بعد فراق طويل امتد ستة أعوام وكأنها ستون عاماً، فكان هذا اللقاء أنسا بعد وحشة ونوراً بعد ظلمة وسعادة

بعد شقاء، وراح أبو العاص يغمر زينب بالحب والمودة، فوجدت بنت الرسول لقاء أبي العاص بعد الفراق غالباً. وإن شق عليها أن تكون في مكة وأبوها في المدينة، وغدا محمد مبتهجاً بعودة أبي العاص إلى بنته زينب، مسروراً بإيمانه وإذعانه للحق.

وشاق الرسول بعد حين أن يرى زينب بعد غيابها عنه في مكة، فأرسل إليها من أهله من يأتيه بها إن لم يستطع أبو العاص أن يصحبها، وإنها لفي طريقها إلى يثرب وركبها يخب بها في عرض البداء، إذا نفر من قرش بمن مردوا على طاعة الرسول واعتصموا بكثبان الرمل للعداء والإيذاء، يقطعون الطريق على ركب زينب، وكان في أولئك الأعداء الأشداء هبار بن الأسود، فلما علم أن في الهودج بنت الرسول، لم يتحرج من اقتحامه، فاستحكم الرمية ونخس زينب برمحه ففرع ظهرها وكانت حاملاً.

وذعرت بنت الرسول وارتاعت حين وقعت وأريق دمها، فحملوها إلى بيوت بنى عبدمناف بين مكة والمدينة، وهي تتحامل على نفسها فقد أسقطت حملها، وخذلها ضعفها.

فيا فجيعة محمد في بنته زينب حين بلغه الخبر! ويا لوعة أبي العاص حين لحق بها من مكة، وكان يعرض أنامله غيضاً ويود لو يحرق البداء على ابن هبار الذي غيبه الفرار وأخفته الرمال.

وبقيت زينب تتقلب في مضاجع السقام خاوية الجسم مكروية النفس، وكيف يقوى جسمها الموهون الذي أسقمته الخطوب وأضنته البداء، بين مكة والمدينة في الحل والترحال منذ هاجر أبوها ومنذ فارقت أبا العاص، وكأن تلك الرمال الرمضاء كانت ظمأى لاهية. فألت أن لا ترتوى إلا بدم زكى من آل الرسول.

كانت زينب ربحانة لمحمد وروحاً لأبي العاص، فذوت تلك الريحانة وفاضت تلك الروح إلى بارئها تشكو ظلم الإنسان فحزن الرسول عليها وبكاها،

وأهدر دم قاتلها بأى أرض أخذ، فانطلق أبطال المؤمنين يبحثون عن ابن الأسود فى فجاج الحجاز وشعب الجبال، وقد حاول هذا الجارم الآثم أن ينسل إلى الأعاجم، هرباً من وجوه المؤمنين الذين هالهم أن تمتد تلك اليد الجانية إلى بنت الرسول فتؤذيها ضرباً ورعباً، ليشفى غيظه من أبيها وزوجها، فتعقبه الأبطال، ولكنهم لم يدركوه.

وجدد موت زينب حزن الرسول، وامتلاً قلبه لوعة وحسرة، وأشفق المؤمنون من حزن نبيهم، وأقسموا بالله لئن أمسكوا بذلك المعتدى الأثيم ليقتلنه شر قتلة، فيصبر النبي ويثوب إلى قلبه المكلم ما ند عنه من الحلم والصبر والرحمة.

وإنه لفى مجلسه يتحدث إلى الزبير بن العوام بما أصابه من المكروه إذ برجل ملثم كبير الجرم كأنه الجمل، يقتحم مجلس الرسول ويبرك بين يديه مستعبراً مستجيراً، قائلاً:

- حللت رحابك يا رسول الله ولشمت ركابك، أنا هبار بن الأسود ذلك الجانى على نفسه، جئتكم بسنانى الأثيم لتطعننى به جزاء ما اقترفت من ذنب لثيم.

فرفع إليه الرسول وجهاً يترقق الحزن فى أساريره، ولم يكد يفرغ هبار من اعتذاره واستغفاره حتى نظر إليه النبي بعينين ليست فيهما نعمة الإنسان، عينين ما خلقهما الله إلا فى وجه ولى من أوليائه أو رسول من رسله، وقاسك الرسول فأصغى إلى هبار، وقد انجلى عن قلبه المحزون ما كان يعتلج فيه من حس مكظوم، واسترسل هبار فى توسله، فقال:

- لقد ركضت فى سبابك وكنت موضعاً فى غيظك، ولكنى كنت مخذولاً، وأبى الله إلا أن يخزنى ويجزنى العذاب، وقد هربت منك فى البلاء

والشدة، ثم ذكرت صفحك عمن جهل وضل، وكنا من الجاهلين فاهتدينا بهديك، فاعف عني يا رسول الله. إننى معترف بجريرتى.

فنظر إليه الرسول وعيناه فى الملأ الأعلى حيث تغسل الذنوب وتغفر الخطيئات، وعفا عن هبار الذى آذى بنت الرسول حتى قضت نحبها بعد ضربها، كما عفا من قبل عن هند بنت عتبة التى مثلت بعمه حمزة.

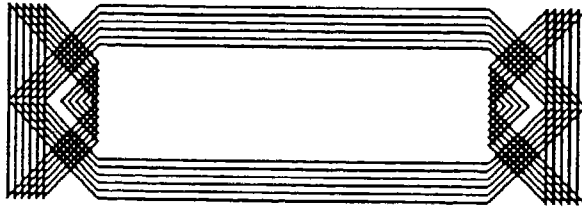
واستقبل الرسول هذا الصفح والغفران بمطلع السنة الثامنة للهجرة، وما كان الرسول بعد هذا العفو ولا كان أبو العاص خليين من الشجون، ولئن صفح الرسول عن ذلك المعتدى الأثيم، فما صفح بعده عن حزنه المقيم وخطبه الجسيم، فكان يبكى زينب فى قلبه، ويجد فى صدره نور العزاء والإيمان إذ كان صفحه عن قاتلها باسم الإسلام الذى يجب ما قبله.

كانت وفاة زينب بعد عام من جمع الشمل وعودة الصفاء بالمودة واللقاء. فإن بنت محمد ألحت عليها العلة الويلة من أذية هبار فحزن الأب والزوج. وكان أبو العاص بعد الزوجة الوفية مثال الولاء والوفاء.



رقية وأم كلثوم (الشقيقتان المتلاحقتان)

«شاعستان وضيئتان من النور النبوي، شرف
عثمان بن عفان بالاقتران بهما، فأصبح
«ذو النورين»



لقد سبق من الحكمة الإلهية أن كان محمد صاحب الرسالة الإسلامية أبا البنات لا أبا البنين، فإن العرب في الجاهلية كانوا إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟

لقد وأدوا البنات خشية فظاعة عم أو جفاء ذوى رحم ففضلوا لهن الموت على الحياة رحمة بهن على زعمهن وإشفاقاً من مصير مجهول حتى جاء الإسلام وحرم الوأد والتجهم للأنثى فأنصفها وكرمها بأحكامه ومعاملته.

ولم يكن هذا المنع والتحريم لصد النفوس عما طبعت عليه منذ القديم من إيثار البنين والتحرج من البنات حتى في عصر الحضارة الإنسانية وانتشار العلم بين الجنسين، مهما تكن التقاليد الاقتصادية والاجتماعية والوراثة النفسية.

فمن حكمة الله أن أوتى محمد البنين الذين طواهم الردى أطفالاً وأعطى البنات فكن أربعاً عشن معه وكانت الطبيعة العربية لا تضحك لحياتهن فشاء القدر أن يكون محمد أبا بنات يتسامى بإنسانيته ومعاملته في رعايتهن ليكون القدوة للمؤمنين فيما ينبغى للبنات من حقوق صانها الإسلام ومكانة تليق بحياتها ورسالتها.

وإن أبوة الرسول لبناته كانت حدثاً جديداً في حياة المرأة العربية ونظرة الدين إليها حتى قال عمر بن الخطاب بهذا الصدد «كنا والله في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم»..

ووهب الله لمحمد أولى بناته زينب ثم رقية ويعهما أم كلثوم ثم الزهراء، وكان نصيب الشقيقتين رقية وأم كلثوم مشتركاً فيما حمل من مرارة وحسرة.

لقد تزوجت الكبرى ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، وكانت خديجة تعد فتياتها للرجل الذي كان له من خصاله وفعاله ومن مروءته ومكانته ما يليق ببنت محمد، ورآى آل عبدالمطلب بعد زواج زينب أن يسبقوا إلى خطبة الأختين رقية وأم كلثوم فبنو الأعمام لا يقلون عن ابن الخالة مجداً ونسباً.

ولم يكن الخاطبان القريان إلا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب. وأبو لهب كان يحب ابن أخيه محمدا ويرعاه ويصد عنه كل ضيم، ولما ولد يتيما وتلقى خبر ولادته أعتق الجارية التي سمع منها البشري، وشب محمد بين أعمامه مكرماً وإن اختصه أبو طالب منذ طفولته بالرعاية والعناية، فلما جاء عمه هذا يطلب رقية وأم كلثوم لابني أخيه لم يستطع محمد أن يرده بل استجاب له وجعل أمهما خديجة بالرغم من تخوفها عليهما من أم الخاطبين ترضى بهما صهرين.

ولم تشأ خديجة بنت خويلد أن تكشف لزوجها عن قلق جال في سرها وخاطرها منذ خطبت البنات الصغيرتان، فإن زوجة أبي لهب عرفت بين عشيرتها وجيرتها بحدّة المزاج وكيد النساء حتى أنها جعلت زوجها لا يعصياها في أمر، وقد ترامى إلى خديجة أن أم عتبة تتناولها باللمز للفرق في العمر بينها وبين محمد فأسرت قلقها في نفسها وجهزت للزواج شقيقتين سلفتين.

ولئن كانت الشقيقتان في مطلع الصبا زهرتين نضرتين فإنهما منذ عقدت خطبتهما أصابهما وجوم وفتور، وكان المنتظر أن تبدوا ضاحكتين فرحتين فقد عز عليهما فراق الأخت الصغيرة والأبوين المحبوبين وكتمت كل منهما خشيتها من حماتها أم جميل زوجة أبي لهب، لكن كلا منهما سكنت على مضض وقالت لشقيقتها:

- وهذا نصيبنا ولن يتخلى الله عنا.

وأجابت الثانية: ألا ترين أباك مشغولا عنا، وكأنه يحمل هم الدنيا، وأما خديجة موزعة الفكر والنظر، تعللنا بالسعادة القريبة وتشارك زوجها فيما يعاني من قلق البال.

وما هي إلا أيام حتى زفت الفتاتان، وفرح الزوجان الأخوان، لكن أمهما كان ينغصها أن ترى هؤلاء الأربعة ناعمين بحياة جديدة معتزين بالقرابة التي جمعتهم.

ويزغ فجر الإسلام على دنيا العرب من بطحاء مكة، وحمل الرسالة محمد الأمين فراح يدعو أقرب الناس إليه صحبة وقربى فهاج أكثرهم وغضبوا، ولما

هتف الرسول بعشيرته الأقربين، واصباحاه! أقبلوا عليه متسائلين فدعاهم للإيمان بالله وأنذرهم، فتصدى له أبو لهب بالسخرية والتهكم وهو الذى كان لا يطيق أن يمس الأذى ابن أخيه محمداً فكيف يهتاج ويهدد قائلاً:

- يا معشر قريش! إن محمداً يسفه أحلامنا ويفتنكم عن دين آبائكم.

ويروح أبو لهب ويجئ وهو ناغم غاضب وقد أيقظت نعمته كل من فى بيته ووصل تهديده للعروسين الضعيفتين، وهبت امرأته بنت حرب إلى نار الفتنة تشعلها بلمزها وهزئها وتحلف الأيمان بأنها لن تبقى فى بيت زوجها أبى لهب مع بنتى محمد الذى قال لمن آمنوا به بأن الله أنزل فيها وفى زوجها هذه السورة:

«تبت يدا أبى لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب* سيصلى ناراً ذات لهب* وامرأته حمالة الحطب* فى جيدها حبل من مسد».

وتعود أم جميل إلى الشوك والعوسج فتلقيه على باب الرسول وفى طريقه، وعلى لسانها سباب لا ينتهى ولا تجرؤ رقية وأم كلثوم على كلمة ترد فيها الشتيمة التى طرحتها الحماة الظالمة فى درب أبيهما، ولم تهدأ ضغينة أم جميل ومكيدتها حتى سمعت زوجها أبا لهب يقول لولديه عتبة وعتيبة: رأسى من رأسيكما حرام إن لم تسرحا بنتى محمداً.

ووقف الأخوان واجمعين يشعران بالشقاء لهذا الوعيد الذى صبه على رأسيهما أبوهما الأحمق. فارتدت الشقيقتان إلى بيت أبيهما طالقين تبكيان نصيبهما الخائب فى زواج غير سعيد، سقتهما فيه العلقم حماتهما الغاشمة، ففتح الأبوان صدريهما لابنتيهما العائدتين إلى بيتهما الأول الذى غمرهما بالحنان والعزاء وأنقذهما من كيد الحماة الظالمة وسباب زوجها وتهديده.

لقد ظن أبو لهب وجماعته بأن محمداً سيشغله طلاق بنتيه عن رسالته التى بذل لها الإخلاص والفداء، فازداد غيظهم وهاجت أضغانهم، فلم يتركوا سبباً من أسباب الجفاء والبلاء دون أن يتخذوه فى الدس والكيد والافتراء. وكانت خديجة وبناتها يهون على الرسول ما يلقى ويسمع، ومحمد يدعو الله فى لهفة وابتهاال أن ينجى المؤمنين من هؤلاء الأعداء الأقربين الذين عجبوا أن

صبر أصحاب محمد على كل أذية منهم واقتدوا الرسالة بالروح والمال وكان من أسبقهم إلى الفداء عثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة. فلما خطب رقية بنت الرسول زوجة له واعتز محمد بهذا النصير الكريم ازداد سخط الناقمين فارتأى أن ينطلق الأنصار والأحرار من المؤمنين إلى أرض غير أرضهم، لعلهم يجدون آفاقاً لا تضيق بهم ولا تؤذيهم فقال لهم:

- ماذا عليكم لو خرجتم من مكة إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فانصرفوا إلى أرضها وأهلها ومن ينصر الله ينصره.

وتنادى نفر من المؤمنين إلى الهجرة فبادر عثمان بن عفان إلى دعوة الذين يطيقون السفر والمشقات، وكان جمعاً كريماً من الصحب وذوى القربى ومعهم نساؤهم فتعلقت عيونهم بالبلد الذى أنبتهم وبالرسول الذى بدل حياتهم وأنقذهم من الجهل والهوان، وكانت رقية ترقأ دمعها وهى تعانق أبويها وتضم إلى صدرها شقيقاتها وزوجها عثمان بن عفان يمسك بيدها وبأخذها إلى هودجها ليمضيا فى القافلة إلى أرض الحبشة حتى هون الله على المهاجرين هذه المشقة إلى الأرض البعيدة، وقد وجدوا فى حمى النجاشى ملك الحبشة عدلاً وفضلاً. لكن قلوبهم بقيت فى مكة فتتبعوا من بعيد أخبار الرسالة والرسول، وجمعت الغربة بين المهاجرين المستجيرين حتى قبل لهم بعد شهر إن قريشاً خففت من كيدها وأن المؤمنين فى ازدياد وانتصار فعادوهم الحنين إلى الوطن وعادوا على السفن التى أعدها لهم النجاشى وهم لا يكادون يصدقون أنفسهم بهذه العودة.

وسارعت رقية بنت محمد إلى بيت أبيها فلم تجده إذ خرج قبل وصولها إلى لقاء العائدين، وسألت عن أمها فأجهشت أخواتها فى البكاء. وكان الدمع الصامت والبيت الحزين يشفان عن فجيعة الزوج والبنات بالأم الحنون التى لم يهلها الموت حتى تعود بنتها رقية المهاجرة الصابرة.

ومنذ علمت رقية بوفاة والدتها كانت لا تفتقر لها حسرة حتى جاءت الهجرة الثانية إلى المدينة، فراحت رقية مع زوجها عثمان بن عفان وكانت

حاملًا، فلما ولدت عبدالله بن عثمان خفت عنها الأمومة بعض متاعبها النفسية لكن عبدالله لم يعيش، فحزنت عليه وخافت أن تفقد عثمان في المعركة القادمة، فإن الهزال تسلل إليها وعلامات الموت كانت تشير إلى نهاية أيامها، فكان زوجها لا يفارقها حتى أنه لم يشارك في معركة «بدر» إذ كانت رقية محتنة في صبرها على الداء والبلاء، وكأنها في عراك مع المصيبة في موت طفلها وأمها، وفي المرض الذي دهمها في عز صباها فلازمها زوجها عثمان بن عفان حتى فاضت روحها وشقيقاتها الثلاث حوامات عليها بالدمع والنحيب، ونسوة الرسول يندبن الصبية التي لم تشيع من عمرها ولم تسعد بأمومتها فلحقت بأمها وفارقت الدنيا وفي نفسها حسرات.

وتجلى محمد وهو ينهنه من نحيب أخواتها وصواحبها وكان زوجها عثمان يكيها كالنساء، وكأنه يكي حياته التي عللها بالسعادة والمجد مع بنت الرسول، ولكن الموت لم يرحم شبابها ولم يترقق بأمله الكبير.

وطال بكاء الأخوات اللاتي فارقتن الشقيقة المهاجرة في الحياة وفي الممات، إذ كانت هجرة رقية مع زوجها عثمان قاسية عليهن، فلما فجعتن بفراق الردى جددن الأحزان وذكرن حرقة الأم لو كانت بينهما، لكن الله كان أرحم بخديجة فسبقت فئاتها الصبية قبل أن تفقدها وهي التي عاشت عمرها محزونة في قلبها لأن الله وهب لها اثنتين من الذكور كما وهب لها الإناث الأربع لكن أبا القاسم المولود قبل الإسلام وعبدالله الملقب بالطيب الطاهر المولود بعد الإسلام لم يكتب لهما العمر. فبقيت في سرها متلهفة على أنها لم تر محمداً تمتلئ القلب سعادة بغلام منها، وهو الذي عاش عمره شديد الحنين للولد حتى وهب الله له إبراهيم على الكبر من زوجته مارية المصرية، لكن إبراهيم لم يكمل العامين حتى استرد الله وديعته فحزن قلب محمد لفقده لكنه أسر هذا الحزن، فإن الحكمة الإلهية شاءت أن ينعم بأبوة البنات لا بأبوة البنين ليكون في هذا الأمر عبرة لمن وأد البنت وفضل الولد خشية إملاق وهوان. وكان الرسول أبا روحياً للمؤمنين بل متمرساً بهذه الأبوة الفياضة بالمحبة والحنان فقد رعى علياً ابن عمه كما رعاه في صغره هذا العم الكثير العيال، وتبنى زيد ابن حارثة الذي وهبته

خديجة بنت خويلد لزوجها محمد قبل الإسلام ثم أعتقه ورياء كولد له حتى
زوجه بنت عمته زينب الأسدية ولما ألقى الدين أحكام التبني فى الوراثة وتركته
زوجته كرها شاء الرسول أن يفهم المؤمنين أن التبني السابق لا يمنع زواجه ممن
كانت زوجة لمن رعاه ورياء.

ولقد فاض شعور محمد بحب بناته فحذب عليهن وقرب إليه أزواجهن،
ولما توفيت زوجته خديجة ازداد عطفه عليهن واهتمامه بأمورهن فلم تشغله
الرسالة عن كل ما يدخل على قلوبهن الأنس والعزاء، ولما فقد رقية التى كانت
صنواً لأم كلثوم شق عليه أن تشعر بالوحشة شقيقتهما ورفيقة عمرها وزوجها
الأول، فكانت الطمأنينة تدخل قلبه كلما رأى فتاته أم كلثوم مشغولة بأختها
الصغيرة فاطمة الزهراء تحنو عليها وتلتصق بها وتؤثرها على نفسها. وكان
انتصار المؤمنين فى بدر إبان الحزن الذى دهم بيت الرسول فكان اجتماعه بصحبه
وتذاكرهم ما وقع لهم خلال المعركة ويعدها مشغلة لهم وكان عثمان بن عفان
لا يفارق مجلس محمد حيث يلتبس فيه العزاء والخوض فى أحاديث المجاهدين
وما كابدوا فى «بدر» من عدوان الشائرين المكابرين حتى كان الرسول وحده فى
مجلسه يرتقب قدوم أحبابه وإذ بصاحبه عمر بن الخطاب يستأذن فى الدخول،
وماراع الرسول إلا عبوس عمر وملامحه التى شفت عن غيظ مكبوت فسأله
محمد:

– ما بالك اليوم غاضباً تتكتم فيما تخفى؟

وكان رسول الله قرأ بلحظ الغيب ما كان يدور فى بال عمر فأعاد القول:
هات ما عندك!

فأجاب عمر بأنه غاضب لأن صاحبيه أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان لم
يستجيبا لرغبته فى أن يتزوج أحدهما بنته حفصة، وحفصة فى بيته تعاني
وحشة وحزناً، فقد مات زوجها وهى فى زهوة الحياة وملأت بيت أبيها من
كآبتها وانكسار خاطرها ما جعله يقدم على إبداء رغبته لصاحبيه وفى هذا
الإبداء ما فيه من مس لكرامته وعزة نفسه لولا أنهما موضع ثقته ومحبته.

فهش الرسول لصاحبه عمر وقال له:

- هون عليك، يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة.

فاعتدل عمر فى مجلسه وتساءل فى نفسه:

- ومن يكون هذا الذى يعنيه غير محمد نفسه؟ فإن جواب أبى بكر كان سكوتا وجواب عثمان كان تأجيلا ورداً، فما أسعده بكلام محمد وقد فطن إلى ما يريد؟

وفطن الرسول إلى ما يبتغى عثمان من التزام مجلسه والتصاقه بأهله، ولم يجد ما يصده فيه عن رجاوته. ولعثمان فى نفس محمد مكانة ومعة فاستجاب له وأرسلت أم كلثوم من بيت أبيها إلى بيت زوجها عثمان بن عفان محفوفة بالعناية والمؤانسة، غير أنها ما كادت تحل فى هذا البيت الجديد حتى تراءى لها وجه أختها رقية فى زواجها الأول معها ثم فى زواجها الثانى فتمنت أن تلحق بها ولا تحل بديلا منها.

ولم ينسها حنان أبيها وود زوجها وجه الشقيقة التى ارتبط بها نصيبها وما صرفها انتصار المؤمنين فى معاركهم الصغيرة والكبيرة عما يعيش فى خاطرها ولا يفارق شعورها، والله يعلم كم قاست لفراق الزهراء التى كانت لها أمأ بعد خديجة ولم تسعد بأومة منها تفديها فافتدت ذكرى شقيقتها ووالدتها واستعجلت النهاية، فلم تذق اللوعة لفراق أبيها إذ غابت عنه قبل أن يغيب عن الدنيا بسنة واحدة ففجع بموتها وتجدد حزن الأختين الكبرى والصغرى زينب وفاطمة فكانتا فى مأتم لهذه الفجيعة.

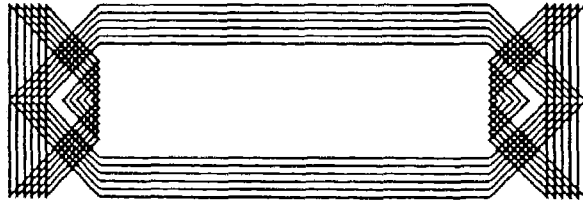
وقد امتد العمر بزواج الشقيقتين المتلاحقين عثمان بن عفان حتى صار من الخلفاء الراشدين، وشهد معارك المتزاحمين والمتنافسين، وكان مصرعه استغلالا لهؤلاء الذين لم يرحموه، فانطوى شهيداً تبكيه القلوب ويرثيه التاريخ، وبقي قميصه المشهور رمزاً لكل دعوة مضللة ليس وراءها إلا الافتراء والادعاء.

فاطمة الزهراء

(أم الحسين)

«الزهراء ، البتول، أم أبيها، سيدة نساء
أهل الجنة»

«ها رأيت يا فاطمة أفضل منك غير أبيك»
من حديث عائشة رضى الله عنها



ناداها محمد

يا فاطمة، يا أم أبيك!

وكان فى صوته غنة ملائكية فياضة بالحنان، ممزوجة بالحزن والإشفاق،
صعدت من فمه، لكنها كانت من سويداء قلبه.

فأقبلت الزهراء نحو أبيها، تمشى مشيته المحببة إليها، وكانت خفيفة
الخطى، باسمه الوجه، متألفة العينين، تتلقى من رسول الله نفحة إيمانه ورضاه،
وبركة أبوته ونبوته.

سعت فاطمة إلى أبيها تقرأ على وجهه المهيب بذكاء النظرة واستشفاف
الفطنة لمحة الوحى، فقبلت يده وقالت:

- نعم يا رسول الله، بروحى أنت وولدى!

فأجلسها عن يمينه، ومال على أذنها يسر إليها كلاماً، فلم تكذ تقع
كلماته فى قرارة نفسها، حتى تجهم وجهها، وفاضت عيناها دمعاً، فعجبت
عائشة وأخذتها الحيرة، وتطلعت إلى وجه الزهراء تقرأ ملامحه وأساريره، ثم
دلفت نحوها لتعلم النبأ الذى غشاها حزناً وصمتاً، وإذا بها ترد طرفها وترتد من
قريب، فتجد رسول الله يدنو من فاطمة ويسر إليها كلاماً، فإذا وجه فاطمة يرتد
إليه بشره، وتشيع فيه نضرتة، وتفرغ على قسماته همسات الرسول إيماناً ونوراً،
وإذا بوجه باسم أزهر يكاد يطفر من إشراقه لون السرور والحياء.

فبادرت عائشة تسأل فاطمة عما همس الرسول فى سمعها، فكان الجواب
ابتسامة فيها لهفة ولوعة، وفيها رقة وإشفاق ثم قالت:

- ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن!

ورنت الزهراء إلى أم المؤمنين بالصمت والابتسام، فلما ألحت عليها
عائشة بالسؤال، قالت فاطمة:

- ما كنت لأفشى كلاماً أسره إلى رسول الله!

ومن يدري فلعل محمداً وهو يلقي فى سمعها تلك الكلمة الخفية المكتومة
كان يكر فى خياله ماضى فاطمة، وتتفتح له على الذكرى أيام طفولتها بين
يدى أمها، فتعيد هذه الصور فى نفسه أنسا بها وتلفها عليها، وكانت حياة
فاطمة فى ذلك الماضى الذى يتصوره الرسول حافلة بأعز الذكريات.

وفى ليلة مولدها قبل النبوة بخمس سنين! لقد ملأت مكة بهجة ومرحاً،
فرجعت تحت سمائها غناء وترتيلاً أصواتها الندايا الرخيمات، فرحاً بميلاد
فاطمة، لكأن خديجة فى تلك الذكرى قامت عن خير نساء العالم، وها هو ذا
محمد مكب على المولودة وهى صغرى بناته يشم من عنقها ریح آمنة بنت وهب،
ويستشف ستار الغيب، فيرى من خلفه شجرة فرعاء، يبهج القلب ثمرها، ثم لا
يلبث قطافها أن يجرحه فى شغافه.

وشبت فاطمة بين أمومة كريمة غرست فى نفسها الطاهرة الفضيلة والحنان،
وبين أمومة رحيمة أودعت قلبها الزكاء والإيمان، وإذ بمحمد يبرها ويؤثرها،
فيغضب لغضبها ويرضى لرضاها.

وتخطو الزهراء فى زهوة العمر وعلى طلعتها مثل نور أبيها، ويسرى فى
مكة صيت جمالها وفطنتها، وسماحة خلقها وطبعها، فتاقت إلى خطبتها قلوب
الصيد من مهاجرى قريش، ولا يكاد الأنصار وعهدهم بالرسول جديداً. يقدمون
على طلب هذه الدرة الغالية حتى يتوسل أبو بكر إلى رسول الله ويخطب منه
فاطمة لنفسه، فى سانحة مؤاتية، ولكن الرسول تبسم وأحس الإشفاق على
صاحبه، ولبث صامتاً مطرقاً، ثم انفرجت شفتاه عن قول معروف وجواب فيه
الأدب والرفق والحصافة.

- انتظر فيها القضاء.

وكانت كلمة فيها صد وفيها تأميل، فانكفأ الصديق بعدها إلى غير معاودة، وندب عمر بن الخطاب نفسه للحسناء الغالية فالتمسها من أبيها، وأحسن محمد رده.

وكانت في قلب «علي» لهفة إلى الزهراء ورغبة فيها كصاحبيه. فأجفله أمرهما، ولكن قائلاً من أهله دفعه وشجعه:

- يا علي! أنت بها أجدر. وشفيعك القريبى...

فتقدم على فتى الفتيان خاطباً فاطمة، وكان قلبه حذراً ونفسه حري، وشد ما فرح حين قال له محمد:

- مرحباً وأهلاً...

فارتد إليه أمانته وبشره، ولم يصدق سروره، فخرج إلى صاحبه بالبشرى، وأعاد عليهم كلمتى رسول الله:

- مرحباً وأهلاً...

وفرغ بعضهم لفرحه قائلين:

- تكفيك منهما الكلمة الواحدة!

وترامت العيون على ابن أبى طالب من مغتبط جذلان، وحاسد واجد، وأى فتى فى العرب لا يدب بين جناحيه الحسد لمن كان زوجاً لبنت الرسول؟.

وملأت الفرحة نفس على وأخذ منه الشوق والظفر حتى خامره قلق نزع عن قلبه الطمأنينة، فنازعتة نفسه لأن يستوثق من محمد ويحقق له خطبة فاطمة، ولا يكاد يبلغه ويتصل بينهما الكلام حتى يضحك الرسول وينكر على ريبه وابن عمه هذا القلق العنيف، وهذا التحرق إلى الطمأنينة فيقول له:

- لست دجالاً يا علي، أعدك وأكذبك!

ودعا الرسول صحابته الأولين، أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير فلما أخذوا مجالسهم، خطبها الرسول وأعلنهم تزويجه فاطمة من علي بأمر الله وإلهامه، ودعا ربه أن يبارك لهما هذا الزواج، ويخرج من نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة.

وغلّب السرور علياً فقبل يد الرسول وأشرق وجهه فرحاً ومرحاً وأمر النبي بطبق فيه تمر وضعه بين أيدي صحابته فأكلوا منه مبتهجين لابتهاج نبيهم، متلطفين لعلی، مهنتين ومستبشرين.

وكانت الزهراء غالية القدر أكثر مما كانت غالية المهر، ومحمد نهى عن الغلو بصداق النساء، فزوج بنته الحسناء بأربعمئة درهم من الفضة ليضرب للناس المثل على أن خير النسوة من كانت على سماحة الخلق حصانة السلوك أغلى عند الرجال من غاليات المهور..

ولم يكن على ذا مال. فباع بغيره بأربعمئة وثمانين درهما أدى منها الأربعمئة مهراً لفاطمة، فقال محمد:

- اشترؤا بها طيباً للزهراء وثياباً.

ولم يكن في جهازها زخرف ولا بهرج. وإنما كان متاعها فراشاً من جلد كبش، ووسادة محشوة بليف، وكان فيه غطاء قصير وقرية ومنخل، وكأس ورحى.

وأقبل الرسول بعد صلاة العشاء ليلة البناء، فجاءته بنته فاطمة تتعثر في ثوب العرس من الحياء، وقد تضرع خذاها وأزهر محياها، وغضت من طرفها، فقرأ عليها الرسول المعوذتين وبعض الدعاء، ثم أخذ بيده قممها من الطيب، وقد حبب إليه من دنياه، فنضح فاطمة برشاشه كما نضح علياً وقال لها:

- زوجتك يا فاطمة خير أهلى، وتركتك وديعة عند زوج كان أسبق
الفتيان إلى الإيمان، وإن علمه لفوق ما يبتغى العلماء..

ولقد زوج الرسول علياً من خير ولده، لكنه أبى أن يقولها فيمن عليه،
وكان من طبع محمد وسماحته ألا يمين بالمعروف ولا يثقل بكلامه على الناس.

وكانت هدية العرس كبشاً من الأنصار ومقداراً من الذرة، ولم تخل
الوليمة من التمر والزبيب.

وسكن على إلى زوجة فاطمة راضى النفس مبتهج القلب، فملأت عينيه
وقلبه بوسامتها وحنانها، وجعلت بيته على فراغه مليئاً بالإيمان والبركة
والأمومة.

لقد امتلأ بيت على ببنت محمد وولدها، فعاشرها على بالمودة والمعروف،
وشهدت فاطمة فى حياتها عنده يسراً وعسراً، وتفقهت فاطمة فى الدين وحبها
على فى العلم، فروت أحاديث عن أبيها ونظمت القريض.

ولم يكن علىّ على فيض علمه ليستعلى على بنت الرسول ويتأنف من
رعايتها وخدمتها فى بيتها، وإنما كان يسعى بين يديها بالماء يمتاحه من البئر
ويحمل إليها الدلو ليصب منه قليلاً بعد قليل على عجينةا الذى طحنت دقيقه
فى رحاها، فإذا انقلب على وفاطمة من طعام تبلغا به، أخذ على يحدثها بما
سمع من حديث رسول الله بعد أن تزوجها، وأخذت هى تروى له ما حفظت من
أحاديثه قبل أن تتزوج.

كان محمد مدينة العلم، وكان علىّ بابها ومحرابها، فلما سكنت فاطمة
هذه المدينة وتمكنت من الباب والمحراب تأدبت بأدب أبيها ووعت من سننه
وأحاديثه ما عز على الرجال، وقد روى عنها ابنها الحسنان، وعائشة أم المؤمنين
وأم سلمة، وسلمى أم رافع، وأنس بن مالك، وقد ظفرت بنصيب اكتسبته من
بلاغة زوجها إمام البلغاء، فكان لفاطمة كلام فيه الفصاحة والرصانة.

وقد أباح الدين الحنيف للمرأة أن تأخذ زينتها ففى بيتها ولزوجها، وأن تختضب إذا شابت، ولا تنقطع عن التطيب ما استطاعت، فكانت فاطمة لا تتجاوز فى زينتها ما قبض لها الإسلام ويسر الرزق، وقد وهب الله الزهراء رصانة فى طبعها وسماحة فى خلقها لا تبدلها الأيام.

ويبدو أن فاطمة كانت أحب بنات الرسول إلى أبيها، فهى صفراهن، وهى شفيع زوجاته إليه، ومن صواحب عائشة، وقد روت أم المؤمنين أن محمداً سئل مرة:

- من أحب الناس إليك؟

فقال: فاطمة

- ومن الرجال! -

زوج فاطمة.

وكانت العلاقة بين فاطمة الزهراء وبين زوجات أبيها قائمة على التكريم والقربى، فما منهن إلا من أحبت فاطمة وأكبرتها، وناfst ضراتها فى الزلفى والمودة لبنت الرسول.

وتغايرت نساء النبى، فوقع بينهن من الجدل والشحناء ما يقع بين الضرات والنظائر، فتوسلن إلى أم الحسنين أن تحمل عتابهن لأبيها فهن ينفسن على عائشة حظوتها عند الرسول، ويلتمسن أن يعدل بينهن وبينها.

وحن قلب الزهراء لنساء أبيها ونبيها، فراحت تشفع لهن عنده وتناشده العدل بينهن، فتضاحك الرسول وقال لها:

- يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟

قالت: بلى

قال محمد وهو يشير إلى عائشة:

- أحبى هذه!

فضحكت فاطمة وضحك أبوها، وكانت تدرك مكانة عائشة عنده ومنزلة أبيها، والميزات التي اختصت بها بنت الصديق دون ضراتها.

كان قلب محمد فياضاً بالعطف والحنان على الزهراء وأولادها وزوجها، وكأنما كان القدر يشعره بما أضمر وأسر لهذه الذرية النبوية من مصائر الخطوب والويلات حين أقام الرسول على باب خيمة تضم هؤلاء الأحباب. وقد اتكأ على قوس، وجعل يرف لصغارهم برأفته ويفدى كبارهم بقلبه الحنون، فلم يستطع أن يكتم حبه ودخيلة نفسه، فقام يوصي بأحبابه خيراً:

- يا معشر المسلمين! أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولى لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يفضيهم إلا شقى الجد ردى المحتد.

ولم يكن عجباً من الزهراء أن تزهد فيما زهد فيه زوجها، وأن تصبر على شظف العيش قانعة بالكفاف، فقد تأدبت بأدب أبيها وطبعت على الصبر والتقشف، فما قيل أنها ألحت على زوجها فى نفقة أو زينة، وإنما عايشته بالمودة والرحمة، وشاركته فى السراء والضراء، فلما اشتكى على إلى فاطمة عسره وتعبه فى الحياة، أجابته:

- وأنا والله قد طحنت حتى كلت يداي!

ثم مضت إلى بيت أبيها، تود أن تسأله، وقد بدا على وجهها شئ من الشكوى والحرمان.

فهش لها الرسول وسألها:

- ما جاء بك يا بنية؟

فغلبها الحياء والإباء، ورداها عن شكاة بثها وبؤسها؛ فقالت:

- جئت أجتلى طلعتك يا رسول الله!

ثم عادت إلى زوجها خجلة محزونة، فجاهدها على أن يذهبها معها إلى الرسول، لعلهما يصيبان شيئاً مما أصاب المسلمون من المغانم. فابتدرهما الرسول قائلاً:

- لا أعطيكما وأدع أهل الصفة يبيتون على الطوى...

ونفذت كلمة الرسول إلى شعور هذين الزوجين الكريمين، فجعلتا يعنفان نفسيهما ويتلاومان.

وكانت معونة أهل الصفة في تلك الآونة شاغل محمد، يلقاها مصباحاً ومسياً، راثياً ومواسياً، فتعاهدهم بالبر والإحسان، وأخذ يغوى الأبرار بإغاثة هؤلاء البؤساء المهاجرين الذين أروا إلى ظل ظليل في مسجد المدينة، وقد ألح عليهم الجوع والعري، فدعا محمد إلى برهم وعونهم، وكلم المؤمنين في الصدقات لهؤلاء المساكين، فنزعن الأقراط والخلائل، وألقينها في ثوب بلال، ثم أمره الرسول أن يبيع هذه الزينة ليشتري بثمانها قوتاً وكساء لأولئك الطارين الذين كانوا يستفون دقيق الأدم ويبيتون على التراب.



كان من دأب الرسول أن يتفقد فاطمة، فلا يحجبه عنها شاغل، فدخل عليها إبان دعوته لغوث أهل الصفة، فرأى على بابها سترأ، وفي يديها سوارين يخفقان، فغمغمت قسماً وجهه بما لاحظته فاطمة، وأشعرها بلومه وعتابه، ثم خرج صامتاً متجهماً، على غير ما تعودت أن تلقاه فراعها صمت أبيها، وهذا الإطراق الذي غشى وجهه بالانقباض، وأدركت أنه معنى بهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم جياعاً، وحطوا همومهم في ذلك الظل من مسجد المدينة، فشق عليها أمرهم ومضت لأبي رافع تخبره برجعة أبيها وجفوتها،

فذهب يسأل الرسول، فقال له: لا ترع فاطمة، فإنما نبوت عنها من أجل الستر والسوارين...

فلما أنبأها أبو رافع بما قال أبوها، نزع الستر والسوارين، وأرسلتهما إلى أبيهما ليتصدق بثمانهما على أهل الصفة.

وغدت فاطمة على أبيها مستحيية واجمة، مستغفرة لما أخذت فيه من زينة فرحت بها، فقام لها الرسول عن مجلسه وأخذ يدها فقبلها ودعا لها ولأولادها، وأكبر برها وطاعتها وإيثارها، وقد وعدا شرف الدنيا والآخرة.

ولما ترامى إليه أن بنى هاشم بن المغيرة هموا بأن يستأذنوه في أن ينكحوا بنتهم علياً زوج فاطمة، غضب الرسول، وضاق بهذا المكروه الأليم الذي أشفق أن يلم بفاطمة.

وكان يغار لها ويفديها، فقال على المنبر:

- إني لا آذن ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا إن أراد علي أن يطلق فاطمة وينكح ابنتهم، فإن فاطمة بضعة مني وربيئي ما رابها، ويؤذيني ما آذاها...

فسقط في أيديهم واستخذوا، وغضوا أبصارهم حياء من الرسول لا يبتغون إلا أن يظفروا برضاه.

وكان الله كرم فاطمة في نسلها الطيب، فاخصها بذرية محمد، ولم يكن له عقب من سواها، وكفى بالحسنين السبطين اللذين كانا قرة عين الرسول وأحب الرياحين إلى شمه، كان يسميهما ولديه، ولطالما لاعبهما ووصى بهما، وتفرس في وجهيهما الصبيحين، فرأى من خلال القدر مصيرهما الفاجع، أكان الرسول ينشق سبطيه الحبيبين ويقول إني أشم رائحة الجنة فيهما لأنه يعلم لهما ذلك المصير؟

ومات الرسول، فتضعضعت فاطمة وجزعت، وانفطر قلبها وفاضت عيناها، فأوت إلى على تجمعهما بعد الرسول لهفة مضاعفة ومودة وحفاظ، فهي لا تألوه وقد أنجبت له البنين والبنات.

وهاج المؤمنون والمؤمنات لموت الرسول وطاشت أحلامهم، فمادوا لهول المصيبة واضطربوا؟ وسعى رجال من المهاجرين والأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة، فتحاوروا وتشاوروا، ثم بسطوا أيديهم بالبيعة لأبى بكر خليفة عليهم، ولكن علياً كف عن البيعة، وصد إكراماً لفاطمة التى رأت زوجها أحق بالخلافة، فجافت أبا بكر ووجدت عليه، وتحيز إلى رأيها بنو هاشم، وقد أقام على والزبير فى دار فاطمة لا يبرحانها. وبعد أيام أقيمت بنت الرسول على أول الخلفاء تلتمس ميراث أبيها فى فذك وسهمه فى خير، فذكرها أبو بكر بقول أبيها «إننا معشر الأنبياء لا نورث»...

فلما أحست الزهراء أن الخليفة وصاحبه عمر يحولان بينها وبين ميراثها، لاثت خمارها، ودخلت فى لمة من أهلها ونساء قومها على أبى بكر وحوله طائفة من المهاجرين والأنصار، فأنت الزهراء أنات أجهشوا لها بالبكاء، ولما سكنت وهدءوا قالت:

- أبتدى بحمد الله على ما ألهم وأنعم، اتقوا الله حق تقاته، وأطيعوه فيما أمركم به، فإنما يخشى الله من عباده العلماء..

أنا فاطمة بنت محمد، أقول عوداً على بدء، وما أقول هذا سرفاً ولا شططاً، فاسمعوا وعوا، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه تجدوه أبى دون آبائكم. وأخا ابن عمى دون رجالكم، ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لى، أحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟

فأجابها أبو بكر:

- يا بنت رسول الله! واللّٰه ما خلق اللّٰه خلقاً أحبّ إليّ من رسول اللّٰه، ولئن تفتقر عائشة أحبّ إليّ من أن تفتقرى، أأظلمك حقك، وأنت بنت رسول اللّٰه؟ كان أبوك يقول: نحن معشر الأنبياء لا نورث، وما خلفناه صدقة...

ثم وعدها بأن يدفع لها نصيبها من الميراث، فقامت من مكانها وتوجهت نحو قبر أبيها تنشده شعراً يفيض باللوعة والشكوى.

وأكره علىّ على البيعة، فسبق قسراً إلى الخليفة، بعد أن لقي ضروب الشدة من عمر، فغضبت فاطمة، ولكن الصديق صاحب أبيها سعى إليها ملتصقاً رضاها وعفوها عن عمر، فسكنت خواطرها، وصدعت الفتنة بفطنتها، وحسماً للخلاف بايع علىّ أبا بكر بالخلافة، فلم يبق بعد ذلك مخالف عليه.

وعطفت عائشة أم المؤمنين على بنت الرسول، وكأنهما وحيدتان وحولهما أهل كثير، فكانتا تجلسان لذكر الرسول وتنضحان بما فى قلبيهما من حنان وقربى؟ وإن خير من يذكر الرسول بعد موته من النساء زوجته وبنته، فطالت جلساتهما وترددت ذكرياتهما، وودتا لو كانتا به لاحتقن؛ وهاجت الذكرى بأمر الحسين فبكت أمها خديجة وأختها زينب وأم كلثوم، وارتدت بخاطرها إلى ما كانت تكاتم عائشة من السر الذى ائتمنها عليه أبوها، وكأنها أحست قرب الأجل، فودت أن تفضى بأمرها لعائشة، ففاضت عيناها، ثم ضحكت سنها، وتألّق وجهها كسيرتها الأولى يوم همس الرسول فى أذنها حديثه المكتوم فقالت لعائشة:

- أتذكرين يوم بكيت ثم ضحكت حينما أسر إلىّ الرسول حديثاً وكنت منا غير بعيدة؟

قالت عائشة بلهفة وعجب:

- بلى يا فاطمة!

فأجابت فاطمة:

- أسر إلى الرسول بأن جبريل كان يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة، وأنه عارضه فى هذا العام مرتين، ولا يرى إلا أنه قد جاء أجله، فبكيت جزعة فزعة، ولما رأى الرسول مروعة قال:

- ألا ترضين يا فاطمة أن تكونى أول أهل بيتى لحاقاً بى؟

فضحكت لذلك كما رأيتنى يومذاك.

فأكبت عليها عائشة تواسيها وتقول لها:

- ما رأيت يا فاطمة أفضل منك غير أبيك!

وكانت تلك الضحكة من فاطمة الزهراء آخر ما افتر عنه فمها الطاهر. فقد طاف بها طائف الأحزان بعد أبيها وجاءت قبره باكية تحييه وترثيه، ثم أخذت من ترابه حفنة ألقته على وجهها، ووقفت تشيعه بطرفها، وكأنها تودعه إلى ميعاد قريب.

وطفقت تستعير وتندب، وتحنو على أولادها مندفعة فى شمعهم وضمهم، مشفقة من فراقهم.

وشكت فاطمة ذات يوم إلى أسماء بنت عميس إحدى السباقيات إلى الإيمان والهجرة، نحول جسمها وتوعك مزاجها، وشد ما راع أسماء أن تسألها الزهراء سؤالاً أجفلها إذ قالت:

- أتستطيعين يا أسماء أن توارينى بشئ؟

فخففت عنها الوهم وهددت أشجانها، ولما ألحت الزهراء أجابت أسماء:

- إنى رأيت أهل الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم

السرير..

فالتمست الزهراء أن يصنع لها مثل ذلك، فلما رآته قالت: سترتموني
ستركم الله.

وأقام علىّ بين يديها يواسيها ويسليها، ويهون عليها ويرجو لها العافية،
وقد امتلأت نفسه حنانا عليها، فلما لحقت فاطمة بأبيها بعد أشهر معدودات،
دفنها علىّ وروحه تكاد تنفطر حزناً وغماً، ونزل في قبرها يودعها الوداع
الأخير.

وكانت لا تنقطع عن البكاء بنتها زينب وأم كلثوم.
وأسرف أولادها على أنفسهم، فلم يتعزوا عن الحزن الذي ملأ قلوبهم
لوعة وحسرة؟ واستوحش على بعدها من البيت، وجزع عليها ويكاها، وكان لا
يشفيه إلا أن يزور قبرها ويرثيها بشعره الدميح.
وكم أكب على الضريح وبكى، ونشق من فوقه التراب ثم ناجاها من
ورائه، وناداه بحسرة كاوية ونغمة شاجية:
- يا فاطمة!.. يا أم الحسين!



الفهرس

الموضوع	الصفحة
- مقدمة الطبعة الأولى	٣
- مقدمة الطبعة الثانية	٥

أسماء المؤمنين

- خديجة بنت خويلد (أم الزهراء)	١٥
- سودة بنت زمعة (العامية)	٢٧
- عائشة بنت الصديق	٣٥
- حفصة بنت عمر (الخطابية)	٥٥
- أم سلمة (المخزومية)	٦٣
- زينب بنت جحش (الأسدية)	٦٩
- جويرية بنت الحارث (الخزاعية)	٧٧
- صفية بنت حيى (النضيرية)	٨٣
- رملة بنت أبى سفيان.	٨٩
- مارية القبطية (المهيدة المصرية)	٩٧
- ميمونة بنت الحارث (الهلالية)	١٠٥

بنات الرسول

- زينب بنت محمد.	١١١
- رقيه وأم كلثوم (الشقيقتان المتلاقتان)	١٢٥
- فاطمة الزهراء (أم الحسين)	١٣٣

١٩٩٢ / ٤٣٠٠	رقم الإيداع
٩٧٧-١٠-٠٥٣٧-٥	الترقيم النوى

اَهْمَكَا تِ الْمَوْضُوعِيْنِ وَبَيِّنَاتِ السُّوْلَةِ